اسحاق الشيخ يعقوب

في الثقافة والنقد





الفارابي

اسحاق الشيخ يعقوب

في الثقافة والنقد

الجزء الثاني

دار الفارابي

الكتاب: في الثقافة والنقد

المؤلف: اسحاق الشيخ يعقوب

الغلاف: فارس غصوب

الناشر: دار الفارابي - بيروت - لبنان

ت: 301461(01) - فاكس: 307775(01)

ص.ب: 3181/ 11 - الرمز البريدي: 2130 1107

e-mail: info@dar-alfarabi.com

www.dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى 2012

ISBN: 978-9953-71-729-6

استهلال...

الحياة معوجّة كشجرة التفاح غير أن ثمرها لذيذ..

«غوركي»

... وقبل ما يناهز نصف قرن وفي غُرّة الخمسينيات كنا نحن معشر تيارات الأفكار اليسارية نُدير رحىٰ الثقافة الوطنية اليسارية التنويرية بهمّة شبابية لا تُجارىٰ... نقتنصها من عيون الأدب العالمي الثوري ونتجاذب إفرازاتها الإنسانية التقدمية ونُعيدها رحيق أفكار تنويرية متألقة تثير دهشة المتلقي في عتم الحياة...

وكنا نستوي حروفاً وجُملاً وكلمات أدبية وفكرية.. تضيئ عتم التاريخ من أجل مستقبل لا تغيب فيه شمس من شموس الكون كله!!

وكان خيال يسار يتناضج فينا ونتناضج فيه في عمق المكونات المادية والفكرية الكونية التي نحسبها رهن قبضات أيدينا دون منازع...

لقد كنا خيال عقيدة ثقافية يسارية لا يأتيها الباطل من جميع جوانبها. بالرغم من أننا كنا في حصار ظلام ثقافات أخرى تشد الحبال على رقابنا.. وكانت حاكمية أيديولوجيتنا الثقافية المميّزة بتوثب يساريتها في مواجهة ثقافة الظلام والتخلّف بثقافة النور والتقدم..

ما كنا نرى بصيص نور في ثقافة الظلام!! أبصيص نور في ثقافة الظلام؟! وما كان أحد منا يجرؤ على التساؤل بيننا... أبصيص نور في ثقافة الظلام؟!!

ويوم أن طرح (غرامشي) شيئاً مشابهاً لمثل هذا السؤال.. قال الرفيق ستالين ما معناه: أيها الرّفاق أقصوا نشاز نعيقه عن سربنا...

أكان من كان... ينعق بيننا في السرب؟! أكان في سربنا نعيق؟!

وتأتي الحياة لتجعلنا نفكر.... الآن نفكر بعد مضي أكثر من نصف قرن من عمر الزمن: إن في الظلام شيئاً من نور وإن في النور شيئاً من الظلام.. ما كان الجدل يعنينا بالرغم من أن الجدل يشق قلوبنا وعقولنا ويستوي فينا ونستوي فيه.. ونتمثله في متون كتبنا ومؤلفاتنا.. وكان الويل يمكن أن يلحق أحدنا لو قال: إن في ثقافتنا التنويرية التقدمية شيئاً من أثر تخلف وظلام!!

الثقافية لا يمكن تجسيدها إلا في نسبيتها.. وإذا فقدت

نسبيتها فقدت روحها التنويرية الثقافية.. وكنا نُعرِّيها من نسبيتها ونديرها في مطلقها.. وهو ما شوّه ولطَّخ تاريخ ثقافتنا اليسارية وجعلنا نقرض أطراف أصابع بعضنا بعضاً.. كأن الذنب ذنب بعض منا وليس الذنب ذنبنا!!

إن الانهيار الثقافي المادي والفكري الذي تعرضت له المنظومات اليسارية والأنظمة الاشتراكية واقع يشكل هزيمة ما برحت تضغط على أنفاسنا وما برحنا نتنفس مرارة هزيمتها.. وبالكاد نستعيد وعي ظروف هزيمتها في هزيمة نفوسنا.. وبالكاد نعيش إيقاع العصر في إيقاع هزيمة الماضي.

أنحن مهزومون في الماضي.. أم الماضي مهزوم فينا؟! وكان الماضي مدرسة نستجلي منها دروساً وعبراً تُناغم إيقاع عصرنا وكنا نتسقط فيها عثرات ماضينا ونجنبها حاضرنا ونشق طريقنا يساراً. يساراً قصياً يتجدد حداثة وتحديثاً على إيقاع مبادئنا وفي ضمير أوطاننا ونقاوة أرواحنا من شوائب حداثة وتحديث ثقافة القوى الفاشيّة والامبريالية والدينية الظلامية التي تضخ ثقافة الغدر والخضوع والإذلال والتسلّط والاستعباد باسم الحرية الزائفة والديمقراطية وتحرير المرأة.. وشبهة الغدر والاستعباد ضمن قِيم حقوق الإنسان!!

وعندما أستعيد حراكنا الثقافي الفكري التنويري في عمومه أستعيد لفتة المفكر والفيلسوف الفرنسي (بالتيزر) بما معناه:

الثقافة التي تدفع باتجاه التاريخ لا تضيع.. لا يمكن أن تضيع!!

وكانت ثقافة اليسار بالرغم من الهنات والزلات.. إلا أنها ما هانت وما وهنت ثقافة تنويرية تقدمية نقدية رائدة تأخذ بالتاريخ وتتشكل في إرادة التاريخ وتُعبِّد الطريق لمستقبل حر أبي يتجاوز في إنسانيته الثقافية ثقافة استعباد الإنسان لأخيه الإنسان.. وكانت ثقافتنا اليسارية عبر المنشور والجريدة والكتاب تتشكل هناك... وبعيداً هناك.. وفي أناس لا نعرفهم.. يطلّون علينا صدفة أو عنوة يكتشفوننا ونكتشفهم في الأفكار اليسارية ذاتها التي نزلت من عندنا واستوت في عقولهم ونفوسهم.. وكأنهم منا... وكأننا منهم.. وهذه حصيلة ثقافية يسارية تنويرية تقدمية كنا ندفع بها رغم المصاعب والسجون والتشريد والمعتقلات في اتجاه التاريخ.. أمن الصدفة مثلاً: أن يكون نهوض الشباب والنساء من أجل الحرية والديمقراطية والعدالة الاجتماعية أكان في تونس أم مصر أم اليمن.. أم... أم... أم... نرىٰ في شمول نهوضه طابعاً تنويرياً يسارياً!!

وأحسب أن أي حراك ثقافي فكري وأدبي ونهوض نضالي.. يأخذ طريقه في إيقاع العصر وضد إيقاع الماضي من أجل الحرية والعدالة الاجتماعية والمساواة. يأخذ في إيقاعه إيقاعات يسارية تتشكل إيقاعاً يسارياً في إيقاع نهوض

الشباب والنساء.. لا يخلو من إيقاع دفع اليسار في اتجاه التاريخ.. وليس بالضرورة أن يكون إيقاع اليسار في قبضة اليسار.. وضمن تنظيم اليسار.. إلا أن على اليسار وثقافة اليسار أن يلعبا دوراً طليعياً وقيادياً في هذا الحراك الذي يتشكل في التاريخ وعبر التاريخ روحاً وفكراً يسارياً في تطواف الحراك الإنساني على وجه الأرض..

أبتهج فرحاً واثقاً بعد هذا العمر الذي يقتحم الثمانين بأن ما بذلناه نحن معشر اليساريين السعوديين منذ الخمسينيات على طريق الثقافة الأدبية والفكرية والنضالية والتنظيمية وبتواضعه يأخذ إيقاعه في الناس وبين الناس وفي مؤسسات المجتمع وقياداته ورموزه. أليس إيقاع اليسار من إيقاع العصر.. بل أليس إيقاع اليسار الذي هيّأ وعبّد الطريق لإيقاع العصر!!

وكم تتشكل الإساءة إلى اليسار من بعض اليساريين الذين يتشكلون ترفاً فكرياً وثقافياً في حراك اليسار وهم بذلك إذ يتهافتون على موائد اليسار الفكرية في (الرّخاء) فإنهم ينابحون اليسار في (الشدائد) ويتحوطون مائدة السلطان.. ولا يتورعون أن يضربوا عنق اليسار بسيف السلطان...

إن التسلطن الانتهازي لدى بعض اليساريين يدفع بهم إلى أحضان السلطان.. وتتماهىٰ أنشطتهم الثقافية والفكرية في

أنشطة ثقافة الدولار في الارتزاق على موائد سلاطين النفط وسلاطين التخلف والظلام..

هكذا يأخذ به الشغف الأناني وهو يتسنّم إحدى المؤسسات الثقافية البرجوازية... ويدير ظهره لزملائه ورفاقه الذين كانوا معه على رأس قيادة الفكر اليساري أو في السجن محاولاً جذبهم شيئاً فشيئاً إلى مواقف وأفكار ظاهرها في اليسار وباطنها معادٍ لليسار.. وعلى إيقاع الخلق والتجديد في ثقافة اليسار... يتخلّق في «التجديد» زيفاً معاصراً في لغة اليسار...

وعلى إيقاع مسألة علاقة الشكل بالمضمون.. وعلاقة المضمون بالشكل.. يتشاجر السؤال في السؤال: هل المضمون في كل الأحوال يتسيّد الشكل ويُحوّله دون أن يتحول معه.. أم يتحوّل معه؟! المضمون يتحول مع الشكل.. أم الشكل يتحول مع المضمون؟! أم المضمون يُحوّل الشكل ولا يتحول معه.. أم يحوّله معه؟! وهل في لحظات معيّنة يغيب المضمون في الشكل ويغيب الشكل في المضمون.. ويصبحان قبضة هواء في مضمون وشكل.. وشكل ومضمون؟!

وهل المضمون والشكل في سلة فكرية واحدة... أم لكل سلة فكرية مضمون وشكل؟!

إن الماضي الأيديولوجي يُذكِّرنا بأن المضمون يحدد

الشكل وليس العكس.. أليس صحيحاً.. وليس العكس؟! أم العكس يتجدد مضموناً وشكلاً؟! الجدل ثابت في الأزل.. أم الأزل ثابت في الجدل؟!

الجدل خارج الزمان والمكان.. أم أنه ضمن الزمان والمكان.. المتحركين والمتجددين؟!

أيتغير الجدل... أيتجدد الجدل؟ أجدل الأمس مثل جدل اليوم.. عناصر الشكل ثابتة في المضمون أم متحركة... عناصر المضمون ثابتة في الشكل أم مُتحركة..

ونرىٰ أمسِ.. أن عناصر المضامين تُغير الأشكال.. أهي كما كانت بالأمس أم تغيّرت اليوم؟! وعلى إيقاع العصر.. وأصبحت عناصر الأشكال هي التي تغير المضامين!! الأشكال عناصر خارجية والمضامين عناصر داخلية... الخارج يُغير الداخل... أم الداخل يُغير الخارج... الشكل يُغير المضمون... أم المضمون يغير الشكل؟!

إيقاع العصر المتسارع في التجدد والتحول والتقارب والتداخل المادي والفكري واختزال الكون في قرية صغيرة وتماس العقول والأرواح والأفكار والأجساد البشرية في وهج إيقاع ثقافة العصر.. شكّل هذا الإرباك الأيديولوجي والفلسفي في ثقافة اليسار.. وتداخلت ثقافة اليسار وثقافة اليمين في إيقاع تحول العصر.. وأضحىٰ اليسار يأخذ من

اليمين وأضحىٰ اليمين يأخذ من اليسار على إيقاع العولمة التي فرضت أوضاعها المادية والفكرية على الجميع!!

العولمة قدر التاريخ.. أم التاريخ قدر العولمة.. العولمة شكل لإيقاع تحوّل الرأسمال المعولم.. والتاريخ شكل لإيقاع تحول المجتمعات... وما يخرج من تحت أجنحة العولمة والتاريخ مضامين منتجة من العولمة والتاريخ.. إنه تداخل وتشابك كُراة من العقد في أشكال الحياة ومضامينها.. وإننا لكادحون كدحاً حتى الفناء نحن معشر اليسار في التاريخ في فكّ عقد أشكالها ومضامينها على السواء!!

انتفض أحدنا.. محتجاً على صيغة العولمة «المتوحشة» وقال «متوحشة» صيغة غير دقيقة.. وهذا إسقاط مطلق... فليس كل ما في العولمة توحشاً... فهي في سلبها وإيجابها.. وذكَّرنا بجدل بصيص النور في الظلام... وبصيص الظلام في النور...

صحيح أن العولمة خلاصة عالمية إرادة الرأسمال في أرقىٰ مراحل تجليات هيمنته... إلا أن في رأسمال الرأسمالية منجزات علمية مادية وفكرية عظيمة ولا يمكن حجب عيوننا وعقولنا وقلوبنا ووجدانية أرواحنا عنها!!

إن منجزاً ثقافياً رأسمالياً رائداً في الإنتاج الثقافي والفكري والأدبي والفني والموسيقي يتشكل واقعاً إنسانياً

معاصراً في حياة الأمم والشعوب.. ويشق طريقه في أقصىٰ أقاصي المغارب والمشارق وينشد التجديد والارتقاء بالعلوم والمعارف إلى ملكوت مجهول المجهول...

أعود وأقول حتى الجدل يتغيّر إيقاع جدله ضمن إيقاع الشكل والمحتوى في إيقاع العصر!!

وعلينا أن ندرك إيقاع جديد الجدل... في إيقاع جديد العصر في ثقافتنا المادية والفكرية...

وكاد أن يجرني من شعر رأسي وهو يقول: ماذا أبقيتم لنا... حتى المادية التاريخية الجدلية.. تريدون أن تهزوا مواقعها فينا... وكنت أقول هل مادية تاريخية جدلية الأمس مثل مادية تاريخية جدلية اليوم؟!

المادية الجدلية التاريخية في إيقاع العصر.. أم العصر في إيقاع المادية الجدلية؟ إيقاع العصر يغير المادية التاريخية الجدلية.. أم المادية التاريخية الجدلية تُغير إيقاع العصر؟!

إيقاع العصر المتغير... والمادية التاريخية الجدلية المُغيّر لإيقاع العصر... سلام هي حتى مطلع الفجر!!

بعد الاستهلال

بتشكل الطبقات وتباينها... تتشكل فئة المثقفين.. وتأخذ دورها في المجتمع.. في مواقف متباينة وفقاً لتشكل وتباين الطبقات وشرائحها الاجتماعية.. فالمثقف يتشكل ضمن تشكل حركة الطبقة (...) ولكنه يستقل عنها.. ويتشكل ضمن فئة ثابتة الانتماء.. بين مجمل الطبقات الاجتماعية.

فهو في صفة مواقف متذبذبة... إلى حين (...) ولكنه يتأدلج في الطبقة ذاتها عندما ينتمي إليها.. ويؤدلجها.. ويصبح في الطبقة ذاتها وضمن مصالحها.. فالمثقف الذي ينتمي إلى الطبقة البرجوازية يتأدلج فيها وبها فكرياً.. ويؤدلج أفكارها.. وفقاً لمسارات مصالحها وطموحاتها.. وكذلك المثقف الذي ينتمي إلى طبقة العمال والفلاحين.. يتأدلج فيها ويؤدلج أفكارها وفقاً لمسارات مصالحها وطموحاتها..

وربما منذ الأربعينيات لم يكن المثقف العربي بشكل عام.. قد حدد بشكل موضوعي وعلمي مواصفات واقع طابعه التاريخي والاجتماعي.. وكانت الكتب والنشرات والبيانات العربية.. درجت على تصنيف المثقفين كطبقة

اجتماعية إلى جانب طبقات المجتمع.. دون الأخذ بمراحل التطور الاجتماعي في عهود المشاعية والعبودية والإقطاعية والرأسمالية والاشتراكية.. ودور المثقفين كفئة تتذبذب بين هذه الطبقات.. حتى الثبات والتأدلج.. عندئذ تنسلخ من فئتها وتتأدلج في الطبقة التي انتمت إليها.. وتُصبح في ذات ومن ذات الطبقة الاجتماعية.. ومعروف أن المثقفين كفئة لا تحمل ثباتاً تاريخياً ولها طبيعة متذبذبة بين الطبقات.. وقد خرجت من رحم الحركة الاقتصادية للطبقات.. إلا أنها انفصلت وتشكلت كفئة في طبيعة ذاتها المتذبذبة بين الطبقات.. حتى الرسُوّ أيديولوجياً في هذه الطبقة أو تلك.. عندئذ تُصبح في ذاتها ضمن الطبقة.. يقول غرامشي: «إن كل طبقة اجتماعية أساسية.. عامت في إحدى اللحظات التاريخية.. ولكنها جاءت من بنية اقتصادية سابقة.. عرفت باستمرار زمراً من المثقفين.. كانوا موجودين قبلها وكانوا يظهرون فضلاً عن ذلك.. بمظهر ممثلي استمرارية تاريخية لم يحدث فيها انقطاع.. حتى بنتيجة أعقد التغيُّرات وأكثرها جذرية في أشكالها الاجتماعية والسياسية».

وعلى ضوء تطور الحياة وتنوعها وتداخلها وتعقدها.. اتسمت فئة المثقفين بصفات كثيرة.. وإذا عرّفنا مثقف السلطة والمثقف العضوي في دراسات سابقة.. فيمكن إطلاق صفات أخرى مثل: المثقف السلفي والمثقف الليبرالي والمثقف

المحافظ والمثقف التقليدي والمثقف الظلامي والمثقف المستنير والمثقف العلماني.. إلا أن المثقف العضوي الذي يراه غرامشي عن حق هو المثقف الذي دُرج أخيراً على توصيفه بالمثقف العلماني والمستنير الذي يُفنِّد آراء ومواقف وطروحات المثقفين التقليديين والمحافظين والسلفيين المعادين للحركة التنويرية في المجتمع. ويرى غرامشي: «بأن المثقفين العضويين يشاركون في المجتمع بنشاط.. أي إنهم يناضلون باستمرار لتغيير الآراء.. وتوسيع الأسواق فالمثقفون العضويون.. هم دائمو التنقل.. دائمو التشكل.. على العكس من المعلمين والكهنة الذين يبدون وكأنهم باقون في أماكنهم يؤدون نوع العمل ذاته عاماً بعد عام».

شأنهم.. شأن فقهاء الظلام ووعاظ السلاطين والتقليديين والمحافظين وزمر الظلام السلفي الذي يناهضون الآراء والأفكار التنويرية والعلمانية ولا يتورعون عن الإفتاء بتكفير أصحابها والتحريض على إقصائهم واستباحة دمائهم..

ينقل لنا الدكتور إدوارد سعيد في كتابه (صور المثقف) عن غرامشي قوله: «ويحاول غرامشي أن يظهر إمكانية تصنيف الذين يؤدون الوظيفة الفكرية في المجتمع إلى نوعين يضم أولهما المثقفين التقليديين مثل المعلمين ورجال الدين والإداريين ممن يواصلون أداء العمل نفسه من جيل إلى جيل.. ويشمل ثانيهما المثقفين العضويين الذين اعتبرهم

غرامشي مرتبطين على نحو مباشر بطبقات أو مؤسسات تجارية تستخدم المثقفين لتنظيم المصالح واكتساب المزيد من القوّة وزيادة السيطرة». ولذا يقول غرامشي عن المثقف العضوي: إن منظم الأعمال الرأسمالي يخلق إلى جانبه التقني الصناعي والاختصاصي في الاقتصاد والسياسي ليكونوا مسؤولين عن إنشاء ثقافة جديدة أو نظام قانوني جديد إلى ما هنالك!!

وأمام هذا التصنيف الغرامشي الحي.. يتساءل البعض أليس فيما يطرحه مشروع الشرق الأوسط الكبير.. قد نرى أن هناك من خصائص أعمال رأسمالية تخلق بالضرورة إلى جانب ما هو تقني وصناعي واختصاصي.. مرتكزات مفاهيم للاقتصاد السياسي.. وإنشاء ثقافة جديدة وأنظمة وقوانين جديدة تواكب تطور الحياة.. ومتقدمة قياساً على ممارسات الأنظمة الرجعية والدكتاتورية القائمة على الجهل والظلام والتخلّف والعبودية وسحق آدمية الرجال والنساء على السواء في رابعة النهار.. أليست الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان وتطوير مناهج التعليم وإدخال التكنولوجيا والعلوم الحديثة في أجهزة التربية والتعليم.. مفاهيم وقِيماً تتخلق بأخلاقية المثقف العضوي.. الذي تلح الحياة المعاصرة على طليعيّة دوره في المجتمع.

* * *

إن مسألة (كيف.. ومتى) كمقولة سياسية لا تخضع لمحترفي السياسة فقط.. وإنما للمبدعين في الميادين الفنيّة والاجتماعية بشكل عام..

إن المثقف العضوي المبدع.. لا ينفصل عن الهاجس السياسي.. في إبداعه.. فمملكة الإبداع تأخذ نسبيّة تسيسها.. والقِيم الجمالية التي يصوغها المبدع في نصوصه إذا لم ترتبط بالدور السياسي المباشر.. فإن تلقائية قِيم جماليتها الاجتماعية والفكرية تتسم بالضرورة بدور سياسي غير مباشر.. فالمثقف العضوي المبدع.. يُجسد إبداعاته الثقافية والفكرية في الدفاع عن قضية شعبه وقِيمها الإنسانية الرفيعة.. وهو كإنسان يحمل هموم البشرية على عاتق نشاطاته الإبداعية والفكرية.. ولا يمكن أن أتصور مثقفاً عضوياً مبدعاً يقف موقفاً سلبياً بالنسبة إلى قضية المرأة وضرورة مساواتها في المجتمع.. مهما تشدّق بمفاهيم ومواقف ورؤى المفكر الإيطالي العظيم (غرامشي): بأنه يعمل في حقلٍ مرتبط بإنتاج المعرفة وحقوق الإنسان.

وتدخل إشكالية: كيف ومتى.. ضمن نشاط مثقف

السلطة.. والمثقف العضوي على السواء... وتُستغل من الطرفين في عملية نقدية تأخذ انتهازيتها لدى مثقف السلطة.. وواقعية مصداقيتها لدى المثقف العضوي المهموم بقضية شعبه.. فالطرفان يتخذانها حجة في ممارستهما النقدية!!

فالأول يستغل موضوعية إمكانية استثمارها لمصلحة السلطة بشكل مطلق.. والثاني يستغل موضوعية إمكانية استثمارها لمصلحة الشعب بشكل نسبي.. إلا أن المثقف العضوي بشفافية وعيه يتماثل في مواقفه أحياناً مع مواقف مثقف السلطة (!!!)

فالسلطة تشكل حالة إغراء سواء للمثقف العضوي أو مثقف السلطة على السواء.. إلا أن مسألة مواقع القِيم الإنسانية تشكل كوابح قيمية لدى المثقف العضوي!!

وما دامت العملية النقدية.. تتواصل في محيط واحد من منظور البناء الفوقي.. فإن التوافق يتشكل بشكل نسبي تجاه السلطة بين نشاط مثقف السلطة والمثقف العضوي...

إن عملية التغيير المناطة بنشاط المثقف العضوي تأخذ ضرورة سياسة فن الممكن وفقاً لمسألة (الكيف.. والمتى) تجاه حساسية المواضيع الاجتماعية والسياسية والثقافية!!

ولو أخذنا حالة الوضع العراقي بعقده وآلامه وحساسياته وظروف فن إمكانية متغيراته السياسية.. فإن هناك... موقفين متناقضين في (الكيف) والمتى) ارتبط أحدهما بخروج قوى

الاحتلال فوراً من العراق.. وهذا الموقف الخطير ارتبط بمواقف فلول النظام البائد والقاعدة.. وقوى الظلام الطائفي.. ومرتزقة كوبونات النفط.. ناهيك عن التوسعات الإيرانية في المنطقة.

إن الخروج الفوري لقوى الاحتلال من العراق يعني ببساطة عودة أيتام النظام البائد وقوى الظلام الطائفي.. وإضرام حريق الحرب الأهلية وتمزيق العراق..

ويأخذ الموقف الآخر تجاه فن إدارة الممكن السياسي في (كيف) إعادة بناء العراق وترسيخ الأمن وتوطيد مدنيّة وقانونية العلاقات الاجتماعية والسياسية والثقافية في المجتمع... وكذلك مسألة (المتى) في إنضاج الظروف الموضوعية والذاتية ليتسنَّى ترحيل المحتل عبر طرق السلم والحوار والتفاوض من العراق!!

كما هناك مثال آخر تجاه الوضع القائم في البحرين.. في عهد الحرية والديمقراطية والتعددية وفقاً لمشروع الإصلاح والميثاق الوطني والدستور.. وقد تداخلت أوضاع الحرية والديمقراطية والتعددية وحقوق الإنسان وإعطاء المرأة حقوقها في النشاط السياسي والاجتماعي والثقافي وفقاً لمقاييس متساوية مع الرجل.. أقول تداخلت مواقف مثقف السلطة ومواقف المثقف العضوي تجاه منجز ميثاق العمل الوطني.. حتى أوشك أن يتماهى موقف مثقف السلطة مع موقف المثقف العضوي.. وكذلك العكس!!

وإذا كان هناك انسلاخ بيّن في جسد فئة المثقفين العضويين.. فإن هذا الانسلاخ تجسّد في الرؤية وفي إشكالية نرجسية وذاتية وطائفية نجدها طاغية على رؤى ومواقف الكثيرين من المثقفين.. وهو ما يتجلّى في شرائح انتلجنسيا بعض الجمعيات السياسية اليمينية واليسارية على السواء.. وكذلك بعض الكُتّاب المصروعين بنرجسيّة قومية وطائفية مُتشددة.. وشوفينية متحذلقة تراها طاغية على ما يكتبون وعلى ما يطرحون وما يناقشون وما ينتدون..

إن التداخل العضوي في الرؤية بين المثقف العضوي ومثقف السلطة في ضمير ميثاق العمل الوطني.. وتكريس أقانيم توجهاته الإنسانية والديمقراطية.. وتطويره يأخذ حيّزاً من الممكن السياسي.. في مسألة (الكيف والمتى) فالكيف لدى بعضهم أخذ طريق تجييش الشارع وتنظيم التظاهرات والاعتصامات وإشعال الحرائق في الأموال العامة وإثارة الشغب وإحداث الغوغائية في القُرى والشوارع ومنابر المساجد وجمع تواقيع العرائض المجانية وتفتيل عضلات الطائفية والتشكيك في مصداقية المشروع الإصلاحي والميثاق الوطني... والحنين إلى ماضي دستور 73 المعادي لحقوق المرأة ومساواتها.. الذي استبدّت به أوضاع وظروف استثنائية قانون أمن الدولة.. وتأخذ مسألة (المتى) لديهم في حرق المراحل دون إعطاء أهمية لبنود الميثاق الوطني..

الذي لو كرّست جميع القوى الوطنية الخيّرة والإنسانية والديمقراطية والعلمانية في هذا الوطن نشاطاتها وتكاتفت بغية التغلب على الكثير من عقابيل تركة الماضي وضرب معاقل الفساد.. لتحقق الكثير من بنود الميثاق الوطني.. وتنامىٰ الوطن مزيداً من الحريات العامة والديمقراطية والتعددية والمجتمع المدني ودولة القانون وتأسست أرضية صلبة لممارسة الديمقراطية الحقة وتفعيل التعددية السياسية وتنشيط قضايا حقوق الإنسان في الحرية والعدالة والمساواة... ولانطوت إلى الأبد عمائم الطائفية والظلام.. من على تراب الوطن..

* * *

وفي الثقافة بعيداً عن السياسة علينا أن نجابه الحقيقة. . .
وأن نكرِّس العمل الثقافي بحثاً عن السلم والطمأنينة في المجتمع. .

وفي السياسة والثقافة معاً يعترضنا «التاريخ» ولا يُتيح لنا لا مزيداً من السلم ولا مزيداً من الطمأنينة!!

إن شأن الثقافة من شأن السياسة وإن شأن السياسة من شأن الثقافة. إنهما شأنان متداخلان. . كلما تداخلا افترقا وكلما افترقا تداخلا. . . فالسياسة عبثاً تُدير ظهرها للثقافة والثقافة عبثاً تُدير ظهرها للسياسة. . . إلا أننا سياسياً نقول لا شأن لنا بالثقافة. . وثقافياً نقول لا شأن لنا بالسياسة!!

وكنا وما زلنا في التاريخ نعيش مكر السياسة. . ومكر الثقافة على السواء. .

ويرى الأديب الروسي المدهش مكسيم غوركي. . أن لا نستسلم للسكون والاسترخاء «وأن علينا أن نتناقش بحزم إذا أردنا أن نهدم خطوط التاريخ المزيّفة» وأن نتجاوز «المستوى المتوسط» الذي يسميه غوركي المستوى «البرجوازي الصغير»

الذي لا يطرح المرء على نفسه فيه أي سؤال: أنا ذاهب إلى أين؟! وتأخذني الخطوات خلف من؟!

شأن المثقف «العربي» الذي دفعت به خطواته العاثرة إلى متاهات اللاجدوى...

وترى بعضهم يتقاطرون بترف ابتهال فكري إلى المجهول دون أن يثيروا سؤالاً في نفوسهم «لِمَ تكون الأشياء هكذا؟! لِـمَ الأشياء هي على هذا النحو!! كيف يمكن أن ننظمها على نحو آخر؟!» وهو ما تراه كثيراً في مؤلفات مكسيم غوركي.. ويرى (ف.إيفانوف) في كتابه مقابلات مع مكسيم غوركي «إن هذه الأسئلة ليست عبثاً.. وكثيراً ما يدفع المتسائلون حياتهم ثمناً لهذه الأسئلة الجريئة».

إن السؤال إلى النفس أكثر مضاءً من أي سؤال آخر.. وإذا كان للديالوغ الثقافي أو السياسي أهمية في اتخاذ القرار الصائب.. فإن الميالوغ الثقافي أو السياسي في النفس وعلى النفس أكثر برهاناً وصواباً.. ويقول «ف. إيفانوف» في كتابه مقابلات مع مكسيم غوركي: «كنت أود أن أصف الأثر الذي أحدثته في نفسي رسائل غوركي هذه غير أن ذلك يشق عليّ أن أول ما أذكره صورة وجهه القلق المتسائل ورغبته الحارة في أن يمدّ إليك العون والمساعدة غير أنك إذا ما اعتنيت بنفسك فإنما تقدم له العون أيضاً.. تقدم العون لهذا المبدع الجامح الذي لا يرتوي ظمأه بقراءة المرء هذه الكلمات

فيشتعل قلبه بجمرة لاهبة مُفرحة ويكتشف فيما حوله جمالاً يعجز عن وصفه».

ولم يستطع المثقف اليساري عندنا أن يطرح السؤال على نفسه.. سؤالاً من حصيلة ثقافة من المفروض أنها من نمط المتسائلين في مؤلفات غوركي!!

إلى أين تأخذني الخطوات والوطن يعيش حالة اختطاف طائفي بغيض.. حتى أصبح المخرج من هذا الانسداد الثقافي طي ما لوّح به مكسيم غوركي يوماً: «إن علينا أن نناقش بحزم إذا ما أردنا أن نهدم خطوط التاريخ المزيفة».

وقد تجافلت الثقافة المزيّفة لدى المثقف المزيف وأدارت ظهرها.. وقيّدت نفسها بخطوط التاريخ المزيفة.. دون إدراك ما قاله مكسيم غوركي يوماً:

«إن الفن مثل سارية السفينة، يجب أن تكون في وقت واحد مستقيمة ومرنة حتى تستطيع تحمل ثقل الشراع كله والانحناء أمام العواصف العنيفة لا التحطم تحت وطأتها».

وقد أصبح الكثير من المثقفين خبط عشواء وَهْم الغوغائية الثقافية والظلام الطائفي... وعلينا أن لا نترك عواطفنا تأخذنا إلى التسابق نحو المجهول... وكأن مكسيم غوركي بيننا يُرشدنا: «أن لا نترك أنفسنا تتسابق وراء الحوادث.. وأن علينا أن لا نحكم على الرجال وفق ما فيهم من شر، وإنما وفق ما فيهم من خير.. إن عظمة الإنسان قائمة على

أنه يستطيع أن يكون طيّباً تجاه الجميع وأنه يعرف كيف يكون كذلك».

وعلينا أن نعرف كيف نواجه ظلام الإرهاب المتأسلم الذي يعصف بحياتنا ويتركنا نلملم أشلاء أنفسنا...

إن غوركي الذي هو عن حق: «نبيّ الكلمة الظامئ إلى الأبد الذي يرى الكلمة سلاحاً أمضىٰ من أقطع شفرة».

وعلى المثقف الوطني المستنير أن يُوظف الكلمة الحرة التي تفيض إنسانية وعدالة في عمق المواطنة وفي عظمة الإنسان حاكماً ومحكوماً في استخلاص الكلمة الطيبة الإنسانية وإشاعتها باسم الجميع وفي الجميع.. وأن لا نحكم على الرجال وفق ما فيهم من شر.. وإنما وفق ما فيهم من خير... من أجل أن يعم خير الجميع وطن الجميع!!!

* * *

وكنت أتساءل هل المثقف يحمل سلطة مختفية داخل وعيه.. وهو لا يحس ولا يشعر بها (...) وربما هي في وعي ذاته أو مشاعره وأحاسيسه.. أو في ذاكرته أو في روحه أو في ضميره أو في لا وعيه.. وهذه السلطة التي تخلّقت في النفس منذ الولادة.. وشقت طريقها إلى نبض الحواس.. هي ما يمكن أن نُعرّفُه برقيب الذات الداخلي.. الذي يتغذى في وعينا على مائدة ممارسات سلطة الدولة وسلطة العادات وسلطة التقاليد وسلطة الأديان وسلطة المدرسة وسلطة التربية وسلطة الأسرة وسلطة الخوف وسلطة التراث!!

وأحسب أن الخوف هو مرجعية هذه السلطات الداخلية والخارجية.. التي تأسست على الجهل في الوعي واللاوعي.. وقد تشكلت منذ التكوينات الاجتماعية في مراحل المشاعية مروراً بمراحل التطورات الاجتماعية للبشرية.. وقد استمدت الجينات الوراثية خصائص انعكاساتها البيولوجية والوجدانية وتطبّعت على مرّ التاريخ في وعي الخوف تجاه مظاهر الطبيعة والفكر والمجتمع.

إن المثقف الذي اكتسب درجات من الوعي الثقافي..

تشكل في صراع لا يهدأ بين وعيه الداخلي ووعيه الخارجي.. في حقيقة وعي غيب الخوف.. المصحوب بوعي الذات المثخنة بالأنانية والنرجسية والانهزامية والسمع والطاعة!!

الخوف وعي الغيب (...) والغيب وعي الجهل (...) والمثقف يعيش صراعات حقيقة واقع تشكل ثباته الفكري والوجداني بين الطبقات في السلطة وخارج سلطة المجتمع..

إنه امتداد روحي وفكري ووجداني للحركة الثقافية والفكرية.. ضمن حركة التاريخ والجغرافيا.. يقول الدكتور غالي شكري في كتابه (المثقفون والسلطة في مصر):

«تاريخ الأفكار ينشئ سببية رأسية (تاريخية) أو أفقية (جغرافية) وقد يتقاطعان في مراكز إشكالية تخص العصر الثقافي أو البيئة الثقافية من خلال الشخصيات أو الأحداث أو القضايا الملتبسة.. أما النقد فيؤسس غائيته خارج نطاق العلة والمعلول لأن المخيلة الجمالية تُشيّد عالمها عبر الإحساس والتذوق من الطاقة وليس من التكوين.. وعلم اجتماع المعرفة.. وقد يكتشف في المادة المطروحة للبحث نوعاً من سببية تاريخ الأفكار أو أحد مظاهر الغائية الجمالية.. ولكن يبقى إطاره المنهجي هو استقراء قوانين المعرفة من جملة التفاعلات المركبة والسياقات المتداخلة

دون الحاجة إلى براهين لإثبات فرضية دون الاستدلال على قيمة غائية أو مضمرة أو هدف غامض أو مستتر».

حقاً إن الأفكار تقاطعت وستتقاطع في غائيتها وفقاً لمراحل التحولات التاريخية والحضارية.. وكل نقلة تاريخية أو مرحلة اجتماعية يصحبها بالضرورة غائية ثقافية وفكرية ونقدية تضمر غائية طبقة اجتماعية صعدت على حطام طبقة اجتماعية أخرى (...).

وقد تتجاوز إرادية الموهبة النقدية لدى المثقف نبوءة فذّة خارجة عن سائد حركة العلة والمعلول.. لأن مخيلة المثقف التي تستمد طاقة الإبداع من عالم موهبة تأسست في وجدانيتها على غائية ذائقة جمالية خارج غائية التكوين السائد!!

وتبقى آثام الغيب والجهل والخوف.. آثاماً تلاحق حقيقة غائية الثقافة ومنتجي المعارف الثقافية على السواء.. وتبقى الحرية منذ فجر التاريخ الإطار الذي يأخذ على عاتقه تقليص آثام الغيب والجهل والخوف من دوائر الثقافة والمثقفين..

ويتشكل وعي الغيب والجهل والخوف في وعي الثقافة والمثقفين.. في عملية الصدام الأبدي بين عقل الإنسان ووعيه وبين عملية إنتاج وإعادة إنتاج المعرفة في الطبيعة والفكر والمجتمع.. وهي عملية ارتبطت بما هو يدوي

وذهني.. وقد استقلّ المثقف بذهنية إنتاجه.. كما استقل العامل بيدويّة إنتاجه استقلالاً نسبياً..

وقد أعطى غرامشي توصيفاً للعامل أنه يدوي.. أما المثقف فهو ذهني.. إلا أنه أكّد مبكراً بأن العمل اليدوي لا يخلو من الفكر.. والعمل الذهني لا يخلو من اليدوي.. ولذا فالمثقف ليس مجرد أحد عناصر البنية الفوقية.. وإنما له وجوده في العلاقات الاجتماعية والإنتاجية..

وأكد غرامشي: «إن المثقفين هم أولاً: منظمو الوظيفة الاقتصادية للطبقة التي يرتبطون بها عضوياً.. وهم ثانياً حملة وظيفة الهيمنة التي تمارسها الطبقة السائدة في المجتمع المدني»، وهم ثالثاً: منظمو الإكراه الذي تمارسه الطبقة السائدة على سائر الطبقات بواسطة الدولة». كما يقتبس ذلك لنا غالي شكري في كتابه المثقفون والسلطة من كتاب (فكر غرامشي السياسي) لجان مارك بيوني.. ويؤكد غرامشي أن المثقف «ليس انعكاساً للطبقة الاجتماعية وإنما هو يلعب دوراً إيجابياً في تحقيق التجانس لتصورها للعالم».

وفي عصرنا هذا عصر التحولات التكنولوجية العاصفة وثورة العلوم والاتصالات والمعلومات نرى التداخل اليدوي والذهني.. يأخذ تداخلاً مذهلاً.. يكاد أن يتماهى.. بالنسبة إلى الإنتاج الذهني واليدوي.. وهي حقيقة تؤكد بُعد نظر وعبقرية غرامشية ربما لم يسبقه إليها أحد!!

وأحسب أن ما يُفيد خصوصاً أمام هذه التحولات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية.. التي شكّلت ضبابية نظرية وفكرية وفلسفية.. لدى الكثيرين من مفكري الأنتلجنسيا العربية.. وأربكت مواقفهم تجاه مُستجدات هذا التطور العاصف على الصعيد العالمي.. حتى اختلط عليهم حابل ما هو جميل.. بنابل ما هو قبيح.. هو الرجوع إلى مؤلفات ودراسات هذا المفكر الإيطالي الكبير.. الذي تعرضت إنجازاته الفكرية والثقافية للتهميش واللامبالاة.... وقد أتت الأيام لتثبت صحتها وأهمية إعادة دراستها وفقاً لواقع مستجدات العصر.. تماماً كما أتت الأيام لتثبت صحة وأهمية أفكار كارل ماركس تجاه الأزمة الاقتصادية التي تفجرت في قلب النظام الرأسمالي بقيادة الولايات المتحدة الأميركية.. وهو ما نراه في شعبية العودة إلى قراءة مؤلف (الرأسمال لكارل ماركس) على صعيد العالم!!

* * *

إن من يعمل في أي حقل.. من الحقول المرتبطة بإنتاج المعرفة أو بنشرها.. هو مثقف كما يرى غرامشي...

وباستخلاص وتحديد المعرفة يمكن استجلاء حقيقة المثقف.. كونه منتجاً للمعرفة.. وقد يبرز أمامنا هذا السؤال ما هي المعرفة؟!

فالإنتاج.. نتيجةُ دالة المنتج.. والمنتج أيضاً نتيجةُ دالة الإنتاج.. وإن إنتاج المعارف الثقافية.. تدل على حقيقة المثقفين ودورهم الثقافي والمعرفي في التغيير (...).

وأحسب أن المعرفة.. هي معرفة الشيء.. معرفة حقيقة الشيء.. إنها انعكاس للواقع في فكر الإنسان.. وهي ترتبط بقوانين الجدل استهدافاً لبلوغ الحقيقة الموضوعية..

والمثقفون يستخدمون المعارف في نشاطهم الثقافي والفني والأكاديمي.. من أجل تغيير العالم وإخضاع متغيراته الطبيعيّة والفكرية والاجتماعية للمتطلبات الإنسانية.. والمعرفة عامل ضروري للنشاط الإنساني في الحياة:

«لأن هذا النشاط المعرفي يقوم به الناس «المثقفون» على أساس خواص الأشياء والموضوعات ووظائفها.. وتأتي

الممارسة في النشاط الإنتاجي للمجتمع كعامل ضروري لعملية المعرفة نفسها..

إن إدراج الممارسة في نظرية المعرفة هو وحده الذي يحول النظرية إلى علم حقيقي» كما تشير الموسوعة السياسية..

وترتبط المعرفة بالإدراك الحي المتجدد وهو ما يتشكل في نشاط المثقف العضوي... خلاف المثقف التقليدي المحافظ.. الذي يقوم بالمهمة الثقافية والوعظية.. في اتجاهات معاكسة ومُعيقة للتطور والتغيير..وهو يحمل إدراكاً محافظاً متخشباً أمام صنمية موروثات النصوص التي أكل عليها الدهر وشرب.. وبهذا يفقد صفته في الإنتاج الثقافي والتغيير.. إنه يُنتج «معرفة» غيبيّة ميتافيزيقية زائفة.. ويقوم بنشرها بين الناس.. وبهذا فإنه عندما يفقد حقيقة إنتاجه المعرفي.. يفقد أيضاً حقيقته الثقافية..

إن حقيقة مثقفي الظلام السلفي الذين يضعون إدراكاتهم الحسّية في عالم الغيب والماورائية.. ينفصلون كلياً عن جدل إنتاج المعرفة كمثقفين.. بتوظيف أحاسيسهم وأفكارهم وخواطرهم ومداركهم ووعيهم خارج زمان ومكان الواقع الموضوعي لجدل الحياة...

إن نسبية علاقة.. ما هو سياسي بما هو ثقافي في إنتاج المعرفة.. علاقة جدل تحدد في النهاية علاقة الإنسان

بالطبيعة والمجتمع والسلطة والقوانين.. وتتشكل حركة الثقافة بموقفين استراتيجيين.. موقف يقوم على نشاط معرفي لتغيير نصوص الواقع.. وموقف يقوم على نشاط ميتافيزيقي في المحافظة على إبقاء الواقع.. وتغيب حقيقة المعرفة خارج الزمان والمكان!!

لقد غصّت المكتبات بكتب ودراسات تاريخية واجتماعية وسياسية وثقافية لا حصر لها.. عن الثقافة والمثقفين وتباينت الآراء وتضاربت الأفكار.. وذلك لأهمية دور المثقفين التاريخي في المجتمع.. ولم تعرف أي ثورة في التاريخ لم يكن للمثقفين دور ريادي فيها.. كما لم يعرف التاريخ أيضاً أية ثورة مضادة لم يأخذ المثقفون دورهم الريادي في مثل هذه الثورات المضادة.. من حيث إن المثقفين مرتبطون بهاجس إنتاج المعارف.. والمعارف بالضرورة تستبطن واقع التغيير المتجدد في الحياة..

إن الشرود عن عالم السياسة.. شرود عن عالم الثقافة.. إن محتوى الثقافة سياسة.. كما إن محتوى السياسة ثقافة..

والمثقف الذي يهز كتفيه ويقول: «مالي.. ومال السياسة» مثقف لا يحمل شرفاً ثقافياً يؤهله لتكريس جهوده لإنتاج المعرفة واستثمارها اجتماعياً وثقافياً وسياسياً واقتصادياً..

يقول الدكتور إدوارد سعيد في كتابه (صور المثقف): «فالمثقف الذي يزعم أن يكتب لنفسه فحسب أو في سبيل

المعرفة الصرفة أو العلوم النظرية.. غير جدير بأن يُصدّق.. ويجب ألا يُصَدّق».

فالثقافة ليست للثقافة فقط.. الثقافة للمجتمع.. كما إن الفن ليس للفن فقط.. فالفن للحياة..

يقول الكاتب الفرنسي (جان جينيه): إنك تدخل السياسة لحظة نشرك مقالات في مجتمع ما.. وبالتالي إذا أردت أن تبتعد عن السياسة تماماً فلا تكتب مقالات ولا تجهر بقول..

وكان بودي أن أسوق ما قاله جان جينيه.. إلى بعض المثقفين الخليجيين والسعوديين الذين يتجافلون إلى الخلف إذا حطّ طارئ العمل السياسي أو الحزبي أو التنظيمي..

وإذا كان هاجس المثقف ثقافياً.. فإن هاجس الثقافة سياسي.. ولا يمكن فصل الهاجس السياسي عن الهاجس المؤسساتي أو الحزبي.. وهكذا تترابط علاقة الالتزام الجدلية... فيما هو ثقافي وسياسي وحزبي.. ولا يكتمل النشاط الثقافي.. في إنتاج المعارف بأبعاده الإنسانية والاجتماعية.. إلا بنسبية ارتباط تفاعلاته الثقافية والسياسية والحزبية..

ويؤكد الدكتور إدوارد سعيد قائلاً: «ولا شيء في نظري يستحق التوبيخ أكثر من تلك الطباع الذهنية للمثقف.. التي تغري بتجنب المخاطر.. أي الابتعاد عن موقف صعب ومبدئي.. تدرك أنه صحيح.. لكنك تقرر ألا تتخذه.. فأنت

لا تريد الظهور بمظهر المنغمس جداً في السياسة.. وتخشى من أن تبدو مولعاً بالجدل.. وتحتاج إلى موافقة مدير أو شخص ذي سلطة وتريد الاحتفاظ بسمعة حسنة.. كإنسان متزن وموضوعي ومعتدل.. وتأمل أن تُدعى مرة أخرى وأن تستشار وأن تكون عضواً في مجلس إدارة أو في لجنة لها مقامها وبالتالي تظل في نطاق الاتجاه السائد الذي يُعول عليه.. وتأمل أن تحصل يوماً على شهادة فخرية أو غنيمة كبرى.. لا بل حتى على منصب سفير».

وأحسب أن خليجنا وجزيرتنا العربية السعودية تضج بمثل هذه الشاكلة من المثقفين الذين يبتغون رضا جلادي الحركة الثقافية التنويرية في المجتمع وطاعتهم.. ويقومون بتزييف الإنتاج الثقافي ـ المعرفي.. ونشره بين الناس.. إنهم من مثقفي إنشاء الله عمي: كما يصفهم أحد الأصدقاء!!

* * *

مرجعية الانحطاط الثقافي.. وتداعي الوعي.. مرجعية تتشكل في عمق الأنظمة الرجعية والتوتاليتارية.. وهي مرجعية ذات همزات شيطانية.. تدفع إلى تشويه الثقافة.. وتخلق المثقف بعدمية الارتزاق.. وخواء الضمير، والانزلاق به إلى هاوية الارتداد الإنساني والثقافي.. والتبلد تجاه حقوق الإنسان وقضية المعدمين والمحرومين والمقموعين في المجتمع.. وتتعرض الحركة الثقافية إلى التشويه.. وتفسيخ قيمها الإنسانية.. ودفعها على أيادي مرتزقة الثقافة إلى هاوية عبودية الصمت والسكينة والوقار.. أمام استشراء الفساد في أجهزة الدولة.

ليس مثقف السلطة هو من يتبوأ مركزه في قمة هرم المؤسسة الثقافية والفكرية والإعلامية فحسب.. وإنما ظاهرة الارتزاق الثقافي تتمدد إلى داخل الوطن وخارجه.. لتبيض واجهة الأنظمة القمعية والاستبدادية في مجتمعاتنا العربية.

وتقوم الأنظمة الرجعية والتوتاليتارية بتشويه وظيفة الإبداع وسمتها الاجتماعية والثقافية والسياسية والفكرية.. التي تنهل من معين الإنسانية التقدمية المحلية والعالمية.

إن الأنظمة التوتاليتارية.. تقوم عبر مثقفي السلطة في إنتاج وإعادة إنتاج مفاهيم الارتزاق والابتذال الثقافيين.. وتشريع حاكمية الاستبداد في المجتمع.. ومسخ المعارف والحقوق الإنسانية.. في قوالب فكرية ونصوص تستهدف أدلجة حاكمية مطلقة وتشريعية زائفتين للأنظمة والأنشطة التوتاليتارية. وتلجأ الأنظمة التوتاليتارية عادة إلى تأسيس قاعدة ثقافية زائفة تأخذ على عاتقها إخماد وإسكات الأصوات الثقافية النقدية.. التي تدعو إلى الحرية والديمقراطية والعدالة الاجتماعية وحقوق الإنسان.. والعمل على ملاحقتهم وتضييق مصادر الرزق عليهم.. ودفعهم إلى السجون والمعتقلات ومحاربتهم وإغلاق منافذ ودوائر وأجهزة الإعلام والنشر أمام نشاطاتهم الثقافية والإبداعية.. ويكابد المثقف العضوي العربي العسف والتهميش كمنتج للفن والثقافة والإبداع والقِيم الجمالية ومدافع عن القِيم الإنسانية.. إن المبدع الحقيقي هو الذي يجسِّد مسؤوليته الإبداعية في مسؤولية قضايا شعبه الوطنية والفكرية والثقافية.. ويوظّف مساهماته الإبداعية.. والتوعية من أجل التغلُّب على مختلف الصعوبات التي تواجه حركة الإبداع الثقافي والإنساني في المجتمع.

فالمبدع الحقيقي هو الذي يصوغ بوعي إبداعي الواقع الراهن.. بوعي وإبداع راهنين لحل إشكالية الأسئلة

الاجتماعية المعقدة.. متلمساً العلاقة الجدلية بين الخاص والعام والفردي.. على ضوء واقعه الجديد.. وفي جهادية إبداعية خلاّقة.. من أجل التغيير وفق نص إبداعي.. متسامياً على الخطابات السياسية والأيديولوجية المباشرة.. وأن يتمثل بإبداعية مستقلة وبنسبية متجددة تستجلي هموم الإنسانية والوطنية وطموحات المعذبين في الأرض. المبدع الحقيقي يتمثل في نصوصه إبداعية تستجلي إيحاءات حلم وطموحات الوطن.. من أجل الحرية والخبز والسلم والديمقراطية والتعددية والانعتاق من جميع أشكال القمع والخوف والإرهاب على اختلاف أشكاله المادية والمعنوية.

المثقف العضوي يجعل من نصوصه الإبداعية قِيماً متنوعة في الأخذ والعطاء.. الأخذ من الطبيعة والفكر والمجتمع.. وإعادة صياغة ما أخذ صياغة إبداعية تتجلى في صور خيالية وقِيم رمزية جمالية وإنسانية وفي خلق أرضية ثرة من الوعي التعددي والديمقراطي واحترام الرأي والرأي الآخر.. والالتزام بالخيار الوطني في السياسة والاجتماع والثقافة.

أمام مثل هذا السياق.. يأتي السؤال معقداً.. وأكاد أقول ملتبساً.. تجاه: من هو مثقف السلطة؟!

أهو.. المثقف الإمعة الذي لا يخرج في نشاطاته الإبداعية والفكرية عن سياسة السلطة (...) ويقوم بأدلجة مواقفها السياسية وتبرير ممارساتها القمعية.. وتسويق سياستها

وتمجيد طغيانها.. وترويج مرئياتها الفكرية والأيديولوجية.. والتصدي للثقافة النقدية تجاه مفاسدها وإفسادها.

ويتناقض مثقف السلطة في عملية نقدية ثقافية مع المثقف العضوي الذي يتماهى بإبداعه ونشاطه الثقافي والفكري مع قضية شعبه في الحرية والديمقراطية والتعددية.. وإقحام إبداعه في عمق النسيج الاجتماعي بغية التغيير إلى الأحسن والأفضل.. متجلياً بخيلاء وشفافية إبداعه في تساوق مع أحلام شعبه بعيداً عن المباشرة السياسية تجاه ممارسات السلطة المعادية للنقدية الإبداعية المحمومة بالتقدم والازدهار والتغيير..

وليس بالضرورة على المثقف العضوي لكي يكون مثقفاً عضوياً كما يراه (أنطونيو غرامشي) أن يقف ضد السلطة بملكاته الإبداعية.. ولكن أن يوظِّف هذه الملكات الإبداعية في دعم ما هو إيجابي وتنشيط رؤاه وتفعيلها.. وفسح الطريق إلى الارتقاء به وتطويره.. وانتقاد سلبياته.. وتأتي منظومة السياسة فن الممكن. في مسألة كيف ومتى في موضوعية الملكة الإبداعية.. تجاه انتقادية السلطة.. وضد غائلة مثقفيها في تفنيد مواقفهم ومدارسهم ومذاهبهم الأيديولوجية والثقافية.

* * *

الأفكار إفرازات اجتماعية في مسار تأمل وتجدد فكر الإنسان في هذه الحياة!! وهي نصوص تتجدد في معانيها... وليس هناك أفكار ثابتة.. كما أنه ليس هناك نصوص معانٍ ثابتة من واقع أنه لا ثبات لمكان ولا ثبات لزمان: فهما في حراك سرمدي على قارعة مسار التاريخ في التطور والتجدد والتنوع..

ولكن هل يمكن الإشارة إلى الوحي كنص؟! وإذا لم يكن نصاً.. (وهو نص) فإنه يصبح نصاً بالضرورة من واقع أن النصوص مؤنسنة اجتماعياً في حياة الناس وأفكارهم... وبهذا فإنها تخضع للنقد والتأويل والتقويم في مسار الحياة!!

وليس هناك ثبات لمعاني النصوص من واقع أن معاني النصوص تتغيّر وفق سياقاتها التاريخية بدون استثناء..

ويرىٰ نصر حامد أبو زيد في نظرية «الهرمنيوطيقا» نظرية التأويل المعاصرة.. «إن هناك ثلاث آفاق تتفاعل في عملية قراءة النص: عملية أفق القارئ.. وعملية الثقافة ـ المجتمع.. وعملية أفق النص.. السؤال: أين يكمن المعنىٰ.. في عقل القارئ.. أم في أفق الثقافة ـ المجتمع.. أم في عالم النص؟!» ويؤكد نصر أبو زيد «أن المعنىٰ ليس في النص.. والمعنىٰ ليس خارج النص.. بل في ثمرة الفعل والتفاعلات.. أي تعدد المعنىٰ في المكان والزمان».

إن تعدد المعاني في النص يرجع إلى حركة الزمان والمكان وإلى تعدد الرؤىٰ في الاجتهاد والتأويل والتأمل لدى مختلف العقول في هذه الحياة.. وهو ما يعني أنه ليس هناك نصوص مقدسة ثابتة المعنىٰ في سرمدية حركة الزمان والمكان.. أي إن نصوص الوحي المقدسة تأخذ خصوصية علاقة نسبيتها في الشؤون الدينية فقط وليس خارج هذه الشؤون الدينية.. وإن خرجت فقدت معاني قدسيتها وأضحت ضمن سياقاتها التاريخية في الزمان والمكان!!

وإذا كان هناك تعدد وتنوع في الحياة فإن هناك تعدداً وتنوّعاً في النصوص الدينية.. ولا يمكن لأحدٍ أن يدعي أنه يمتلك حقيقة معنىٰ النص من واقع تعدد الرؤىٰ التأويلية في معاني النصوص!!

يتساءل نصر حامد أبو زيد: «ما الذي يجعل الناس في مجتمعاتنا لا تقبل فكرة تعدد المعاني بينما هذا هو الشيء الطبيعي في الحياة الإنسانية.. سواء نتكلم عن المعنىٰ السياسي أو الاقتصادي أو المعنىٰ الديني.. يجب تأسيس قواعد لتقبل هذه التعددية.. ولا يتم ذلك إلا بأن تكون التعددية ماثلة في أفق ـ أو آفاق ـ الحياة الاجتماعية.. هذا هو سبيل قبول مبدأ التعدد في المعنىٰ».

وإذا كان يمكن قبول مبدأ التعدد في المعنىٰ السياسي والاقتصادي فإنه لا يمكن قبول مبدأ التعدد في المعنىٰ الديني

وفي مجتمع متعدد الأديان والمذاهب والطوائف إلا في بناء مجتمع علماني يقوم على فصل الأديان والمذاهب عن الدولة والسياسة حتى يستقيم المعنىٰ الديني على قاعدة الدين للّٰه والوطن للجميع.. وخلاف ذلك يُصبح الوطن نهباً للمعاني الدينية المتضاربة ومصدراً للإرهاب والتكفير والطائفية...

ويقول (محمد أركون): «لقد سعىٰ روّاد الحداثة الأوائل إلى سلب المشروعية عن الكنيسة.. وانتهىٰ الأمر إلى غلبة مفهوم تاريخية الأفكار كل الأفكار وخضوعها لمنطق الزمان والمكان.. وهذا المفهوم نشأ في صلب الثقافة الأوروبية ثم انتقل إلى الثقافة العربية.. والتاريخية تهدف إلى ربط النصوص بالبيئة الجغرافية والطبيعية والبشرية والقبائلية لشبه الجزيرة العربية في القرن السابع الميلادي.. فتصبح دلالات الألفاظ مرتبطة بعهد التنزيل فينتفي مفهوم الحقيقة الثابتة والمعنىٰ الصواب ليفتح المجال لتعدد المعاني وتجددها بحسب ما يمليه تجدد المعايير والقِيم».

ويؤكد نصر حامد أبو زيد: «إن كل الخطابات تتساوىٰ من حيث هي خطابات.. وليس من حق أحد منها أن يزعم امتلاك الحقيقة».

ولا أحد غير المؤسسة الدينية تزعم أنها تملك الحقيقة المطلقة وأنها وحدها راعية هذه الحقيقة على الأرض..

وهذا الإشكال التأريخي تجاوزه الإنسان الأوروبي في

رفع يد الكنيسة عن المجتمع.. وكانت النهضة بعينها عندهم.. أليس من المنطق أن نحذو حذو الإنسان الأوروبي في كف يد السلطة الدينية عن المجتمع.. والعمل على تحييدها على قاعدة فصل الدين عن الدولة والسياسة؟!

* * *

التجريدية فلسفة قراءة النص... الذي يقرأ النص هو ذاته نص.. وعليه قراءة ذاته قبل قراءة النص... أن يجرد نفسه كنص ويجرّد النص الذي يقرأه... ليصل إلى حقيقة نفسه كنص.. وإلى حقيقة الآخر كنص!!

وكان يقول: الوصول إلى الحقيقة عبر التجريد... وأهز رأسي موافقاً فيبتهج..

إلا أنه يعود عابساً يابساً عندما أضع شروطاً للتجريد... هو يرى التجريد في مطلقه وأنا أرى التجريد في نسبيته!!

وعلى قاعدة النسبي والمطلق نختلف تجاه التجريد في النصوص وفي البحث عن تقييم حقيقة النصوص...

هو يُصبح متجرداً في النص.. ويأخذ موقفاً تجريدياً في نظرة ذاتية في تفسير النص ويرىٰ أنها الطريقة العلمية الوحيدة في الوصول إلى كشف معايير النصوص وتقييم حقيقتها المادية والفكرية.. فأرد معترضاً بأنه ليس هناك طريقة علمية واحدة

في قراءة النصوص.. فكل قراءة علمية هي في احتمال نسبيتها.. فما هو مطلق في علميته اليوم يحمل احتماليّته النسبية غداً واليوم!!

التجريد هو النظرة الذهنية في التأمل والإمعان في التدقيق في تنوع الأشياء وتعدد خصائصها المادية والفكرية وعلاقاتها الموضوعية والذاتية تجاه الأشياء الأخرى.. والتجريد هو الطريق الوحيد للوصول إلى جوهر الشيء وبدون التجريد يستحيل الكشف عن جوهر الأشياء واستقصاء حقيقتها.. وهو ما نتفق عليه أنا وزميلي (...) الذي صال وجال وكأنه يُمسك بحقيقة الفلسفة التجريدية من تلابيبها!!

وكان الانطلاق من التجريد خلافاً بيني وبينه.. هو ينطلق من المطلق وأنا أنطلق من النسبي.. التجريد يأخذ صحّة توجهه تجاه ظواهر النصوص العلمية والأدبية والفنية بشكل عام في صحة الانطلاق.

يقول لينين في هذا الخصوص: «إن التفكير وهو ينطلق من العيني إلى المجرد ـ بشرط أن يكون (صحيحاً)... ولا يتنصّل من الحقيقة بل يزداد اقتراباً منها.. إن تجريد (المادة) و(قانون) الطبيعة وتجريد القيمة إلخ.. أي باختصار جمع التجريدات العلمية (الصحيحة الجادة لا الباطلة) إنما تعكس الطبيعة بطريقة أكثر عمقاً وصدقاً واكتمالاً» (لينين، المجلد 38، ص 171).

وهو ما أردت أن أهمس به إلى صاحبي (...) بأن هناك تجريدات علمية صحيحة وتجريدات علمية باطلة.. فليس كل تجريد يأخذك إلى الحقيقة!!

ويبقىٰ التطبيق هو المعيار الصحيح لأي تجريد.. والتجريد هو تجريدان تجريد مادي جدلي وتجريد مثالي طوباوي وقد حذّر لينين من الوقوع في المثالية قائلاً: «إن من خصائص الفلسفة المثالية تحويل منتجات التجريد (التصورات والأفكار) إلى جوهر الكون ومبدئه الأول وتُعدُّ الفلسفة المثالية التجريدية نتاج النشاط الذهني بطريقة لا ترتبط بأية حال بالعلم الموضوعي وأوجه نشاط الإنسان العملية».

سيدي الفاضل (...) الذي هجست أنه لا يريدني أن أذكر اسمه: قد تَعْلَم قبل أن أَعْلَم.. وقد أعلم قبل أن تَعْلَم!! أن هناك تجريداً مادياً جدلياً.. وتجريداً مثالياً.. فالأول يقود إلى (الصواب) والثاني يقود إلى (الخطأ). الأول يأخذ بالنسبي والثاني يأخذ بالمطلق!!

ليس النص وحده.. وإنما مجمل السلوك الاجتماعي والسياسي والثقافي للناس والمنصوص على السواء يساعد على قراءة صحيحة تجريدية علمية تؤدي إلى جوهر الحقيقة..

وأحسب أن التجريد المادي الجدلي في قراءة النص من جميع جوانبه وربط خاص النص بعامِّه يشكِّل عين الصواب الذي يؤدي إلى جوهر حقيقة النص... خلاف التجريد

الميتافيزيقي في قراءة النص.. الذي يأخذ بقراءة بعض جوانب النصوص ويترك بعضها ما يشكل عين متاهة لا تؤدي إلى جوهر النص وحقيقته!!

ويلعب هاجس (الأنا) لدى الناص (قارئ النص) دوراً يؤدِّي إلى إرباك عملية التجريد ويسيئ إلى صياغتها التجريدية التي لا تؤدي إلى جوهر النص!! إن التجرد من (أنا الذات) يُعطي التجريد واقع تصويب أنجع وأنصع.. ويأخذ به إلى حقيقة جوهر النص المشغول بالتجريد المادي الجدلي!!

* * *

يوم أن وضعت عنوان مقالي (الوحي كنص) تأمّله متجافلاً مراقب تحرير الجريدة... وأزال الوحي وأبقىٰ على النص... هكذا ترتعد فرائص المثقف أمام سادن النص خشية المساءلة!! لقد زجّ الإرهاب فكره في فكرنا... وأضحينا نخشاه... وكانت كاف التشبيه في (الوحي كنص) تقع بين أن يكون الوحي نصاً.. وقد لا يكون نصاً.. وهو أمر يأخذ وجهات نظر مختلفة لدى مؤولي النصوص وسدنة دعاتها... وأرى أن جميع النصوص بطبيعتها خاضعة للتأمل والتأويل.. فالنصوص بطبيعتها متحركة غير ثابتة... وهي تُحرِّك العقول.. وكذا العقول تحرِّك النصوص.. إن هذا

الجدل بين العقل والنص.. يُفقد النصّ حرمة القدسية... فالعقل في النص متحرك.. والنص في العقل أيضاً متحرك.. ولا يمكن للعقل أن يستوعب الوحي... إلا بعد أن يصبح النص عقلاً.. ويصبح العقل نصاً... والوحي لا يتحول إلى نص إلا عندما يلج عقل الإنسان.. الذي يتأمله ويُؤوِّله عقلانياً في عقله.. وليس هناك في الكون كلام لا يؤول كما يقول ابن عربي.. فالعقل حاضن التأويل.. والنصوص جميعها في مجازها... وإنه من العبث بمكان قراءتها قراءة حرفيّة.. فالحرفية تقتل المجاز المتعدد والمتنوع في عقل الإنسان الذي يتسيّد النصوص.. ولا تتسيده!

إن مقولة (القرآن حمّال أوجه) لعلي ابن أبي طالب كرّم الله وجهه ما يدل على أن النصوص القرآنية لها أكثر من قراءة وجه ومعنىٰ وهي متعددة المعاني وفق مجاز تعدد وتنوع استقبال عقل الإنسان لها!!

إن القراءة التأويليّة الهرمينوطيقية تحكمها ثلاث درجات: في شكل النص.. ومحتوىٰ النص.. ومجاز النص.. الذي يتجاوز عالم الشكل وعالم المحتوى في عالم متلقي النص وفي مجاز إيحاء النفس في الاحتمال والترجيح... إن عالم الشكل وعالم المحتوى في النص يخضعان إلى عالم المجاز لدى المتلقي...

إن النصوص في تاريخية مفاهيمها أكانت حديثة أم

قديمة... وكثيراً من المفاهيم والأفكار القديمة انتهت صلاحيتها من واقع علمي بأن صلاحية الأشياء المادية والفكرية ترتبط بحركة الزمان والمكان.. وإن كثيراً من الاكتشافات العلمية أثبتت أن الأشياء التي كانت لها صدقية من قبل... لم تعد لها صدقية بعد في الحياة.. ومنذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة كانت البشرية تعتقد أنها تفكر وتُؤمن بقلبها.. أي إنها لا تدري بماذا تفكِّر وبماذا تؤمن!! وقد أثبت العلم أن الإنسان لا يفكِّر بقلبه.. وإنما يفكِّر بعقله!!

ولا يمكن إبقاء نص مفهوم «الولاء والبراء» كما كان عليه تاريخياً.. وإنما علينا أن نتجاوز عالم شكله وعالم محتواه إلى عالم مجاز التلقِّي في الإيحاء العقلي في الاحتمال والترجيح وفق ظروف الموضوعية والعقلانية على طريق التآخي والتسامح مع معتقدات الأديان الأخرىٰ!!

... قدم إلى النبي في المدينة وفد من نصارىٰ نجران برئاسة أسقفهم للحوار... وكان يوم أحد ولما حان وقت إقامة القداس.. سأله الأسقف قائلاً: يا محمد أين سنصلي؟. فأجابه محمد في مسجدي.. فصعد الأسقف المنبر الذي يجلس عليه النبي وأقام القداس!!

إن علينا أن نستوعب النصوص المتطرفة وشبه المتطرفة بالنصوص المتسامحة والتوجه بمسارها الفقهي إلى طريق المعقول المستنير المتسامح.. وليس المنقول المتطرف...

والعمل على تأويل اللامعقول بالمعقول.. وأن نتناهىٰ مع الإمام الصوفي العظيم ابن عربي وعلى هدي وجدانياته الروحية الطاهرة التي بلغت بسموها الإنساني الفذ مُعانقة كل الأديان بلا استثناء!!

لقد كنت قبل اليوم أُنكر صاحبي
إذا لم يكن ديني إلى دينه داني
وقد صار قلبي قابلاً كل ملّة
فمرعىٰ لغزلانٍ ودير لرهبان
ومعبد أوثان وكعبة طائف
وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنىٰ توجهت
ركائبه فالحب ديني وإيماني

رحم اللّه ابن عربي الذي تجلىٰ بحقيقة طهرانية تسامحه عند ربه إلى أن ساوىٰ الديانات الوثنية بالتوحيدية.

* * *

تتميّز الثقافة بخصوصية خطورة دورها في تحريك وتوجيه وتطوير المجتمع.. فهي الرافعة الرافدة والمحركة والموجهة والمنظمة لإنتاج وإعادة إنتاج الحياة المادية والفكرية في المجتمع على طريق التنمية البشرية.. وخطورتها تكمن في استخدام تحريكها وتوجيهها وتنظيمها على الطريق الصحيح في توجهها الثقافي الإنساني العام.. فالثقافة تكوين إنساني تنويري يتجدد ويُجدد الحياة في أبعاد التعدد والتنوع والتلوّن الإنساني.. وهي المطاف الأوسع والأشمل والأعمق في التاريخ لتراث البشرية.. وإرثها الشرعي على وجه الأرض!!

وتكمن خطورة الثقافة في كونها إرثاً بشرياً مشاعاً للجميع.. وهي في هذا المجال الأكثر تناولاً واستثماراً واستغلالاً للطبقات والفئات وشرائح المجتمع التي تتسيّد الحياة الفكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية. وقد ارتبطت الثقافة كإنتاج فكري وإبداعي بمراحل انتقال المجتمعات والحضارات من العبودية والإقطاعية والرأسمالية والاشتراكية وكانت ولا تزال تشكِّل خصوصية في جوهرها الإنساني وفي حركتها التنويرية والإبداعية!!

ورغم المحاولات الطبقية في الأنظمة المتعاقبة في الحياة ضمن حركة التطور في خنق الثقافة في قوالب أنظمة اجتماعية وهواجس طبقية وظلامية ودينية متطرفة ودكتاتورية وفاشية.. إلا أن الشحنات الإنسانية في صيرورة التكوينات الثقافيّة والملكات الإبداعية الشاخصة إلى واقع التمرد والخروج على نصوص التخلُّف والظلام في الأنظمة الاجتماعية تتشكل تناصاً ثقافياً مناهضاً لسائد نمطية النصوص الثقافية ذات التوجهات المحافظة.. ولم يعرف التاريخ ثقافة ثابتة النصيّة في نمطيتها.. من واقع أنها حراك أمواج فكرية وإبداعية تتلاطم على صخور التاريخ فيذهب زبدها الثقافي جفاء ويبقىٰ ما ينفع الناس!!

ومنذ أزل التكوين الثقافي كانت الثقافة واقع خشية وخوف ومداهنة وحذر وترهيب وترغيب من الطغاة والأباطرة والمتجبرين الذين يحكمون شعوبهم بالحديد والنار من واقع أن الثقافة في جوهرها الإنساني متنفس فكري وأيديولوجي إلى جانب الضعفاء والمهمشين.. ونصير أمل واستجلاء وعي خلاصهم.. إلا أن الثقافة اغتصبت في إنسانيتها ومُثّل بقيمها ورفعت على الصليب مثل المسيح.. وقد عرفت مجتمعاتنا ثقافة ـ الإرهاب.. وثقافة ـ الدولار.. وثقافة ـ الظلام.. وثقافة ـ التطرُّف.. وثقافة ـ التكفير والإقصاء.. وكان الضّخ الثقافي الملتبس كثيفاً وظلامياً ومُعمقاً في النفوس وفي العقول وفي الطفولة وفي المساجد ودور العبادة وفي

المدارس والجامعات وفي الصحف والكتب ودور النشر والمكتبات والفضائيات وفي بعض المنتديات والمراكز الثقافية والطائفية.. حتى أصبح مثقف الظلام والدولار سيد الموقف الثقافي وأصبح الظلام يزحف.. ويزحف دون مقاومة ليأتي على آخر بقعة بصيص نور في ذاكرة مثقف منزوٍ يقضم أظفاره على طريق طارئ الثقافة وهامشها!!

ولا يمكن الحديث عن الثقافة دون توشيجها بالمثقفين الذين هم بُناتها وحماتها ومفجرو قِيمها الإبداعية ورافعو أعلامها الإنسانية.. وكما أن الثقافة التنويرية تُجابهُ بثقافة العدمية والتخلُّف والإرهاب.. فإن المثقف التنويري يُجابه بثقافة العدمية والتخلُّف والإرهاب في طول وعرض مجتمعاتنا العربية!!

وفي مقارنة ميدانية أولية بين نشاط المثقف التنويري والمثقف الظلامي ينحسر المثقف التنويري إلى نسبة تافهة معيبة تنذر بأبعاد ثقافة خطيرة في الميادين الفكرية والإبداعية..

وفي هذا الميدان يأخذ المثقف العربي التنويري أكان كاتباً أو صحفياً أو ناشطاً اجتماعياً أو أديباً أو فناناً أو مسرحياً أو شاعراً مكاناً بائساً ومتدنياً إذا قِيس بنشاط مثقف الإقصاء والظلام والإرهاب!! وفي ملاحقة ميدانية لملاحق الجرائد الثقافية وأنشطتها الأدبية والفنية تأخذ عدمية الرؤىٰ الثقافية وسرياليتها الذاتية حيزاً يؤرق عتمة الشأن الإبداعي

الثقافي ويقيده بأغلال السياسة والعدمية ونرجسيّة الذات التي تُقصيه تماماً عن مسؤوليته الثقافية الإبداعية وأبعادها الإنسانية حتى إن بعض المثقفين «التنويريين»[1] تُطوّح بهم الذاكرة الثقافية تجاه ممارسات قانون أمن الدولة سيئ الصيت ولا يستطيعون أن يُفرِّقوا بين ثقافة ما قبل وما بعد قانون أمن الدولة.. وكأن فتح مشروع الإصلاح الثقافي في الحريات العامة والديمقراطية والتعددية وحقوق الإنسان وحقوق المرأة لم يُحرِّك شيئاً من مياه وجدانيتهم الثقافية الملتبسة في ركودها!!

الثقافة إلى جانب أنها إنتاج جميل ما يُبدعه الإنسان المثقف.. هي في الوقت نفسه عرفان وإقرار بجميل من يرفع من شأنها ويصون كرامتها في الحرية والديمقراطية والتعددية ويأخذ بيدها ويعيد ذاكرة روّادها ومبدعيها إلى الحياة والذي يُنكر ذلك لا يستحق أن ينتمي إلى إنسانية الثقافة وأبعاد مسؤوليتها في المجتمع.. وعندما تختلط الثقافة الإنسانية بثقافة عدميّة وبربرية الذات ترتكس وتنثال في ظلام الموت والعدم.. من واقع أنها معين تنوع وتعدد وأحلام وآمال وطموحات انفتاح وتضامن وتجاسد إنساني في العقول والأرواح بين الشعوب والأمم!!

---

(1) الحديث هنا عن بعض المثقفين البحرينيين وموقفهم السلبي تجاه أعمال الإرهاب والتخريب.

إن شرّ ما يؤرق الثقافة هو شخصنتها والاستئثار بذاتيتها في عدمية التحذلق السياسي والأيديولوجي وفي الارتزاق على شواطئ الغموض والإبهام اللغويين.. وخلط ذاكرة أوراقها الإنسانية التنويرية الإبداعية في ذاكرة العدمية والإرهاب والتخريب وقوارير الملتوف وحرق إطارات السيارات والاعتداء على أملاك الدولة العامة.. وحتى هذه اللحظات لم يضطلع المثقف العربي بنصوص تنويريّة واعدة تُدين الإرهاب والتطرُّف بالرغم من صولات وجولات مثقف الإقصاء والإرهاب في طول الساحة الثقافية وعرضها، وبالرغم من أن نصوص الإقصاء والإرهاب والتكفير هي من أكثر وأشد وأخطر النصوص الثقافية الظلامية التي تستهدف بالدرجة الأولى قلب الثقافة النابض بنور الإنسانيّة والإبداع.. وقد بلغ اللّغط الثقافي بأحد الملاحق الثقافية في تدبيج صورة تشكيلية في صدر الملحق تُشير إلى قبضة يد تقبض على قنبلة يدويّة تتهيأ لإرهاب «الشهادة» باسم الثقافة.. هكذا تُدرج الثقافة من قوى تعنىٰ بالثقافة إلى عدمية وعي الإرهاب والتطرف والتخريب وفي اتجاه عدمي مُبتذل لحقيقة الثقافة التي ترتكز في الأساس على مبادئ التآخي والتسامح والتناصح والتفاهم والتضامن التنويري الإبداعي الإنساني ونبذ الأحقاد العرقية والقومية والطائفية والمذهبية والحرب والاقتتال.. وتكريس الأمن والمحبة والتفاهم والإلفة بين الشعوب على الأرض.

***

وإذا كانت الثقافة رسالة تنويرية.. فإن مسؤولية هذه الرسالة التنويرية تقع بالدرجة الأولى على عاتق المثقف وحده.. وليس على الثقافة ولا على الجهاز الثقافي الوزاري الذي يدير الثقافة ويوجهها!!

فالمثقف الذي يضع لائمة التخلُّف على أصولية الأنشطة الإسلامية السياسية أو على الجهاز الثقافي الذي يدير الثقافة.. هو مثقف انهزامي تبريري «غير عضوي» يتخلىٰ عن دوره الاجتماعي في الهروب إلى الأمام من مسؤولية رسالته التنويرية ويضع اللائمة التي تقع على عاتقه على عواتق الآخرين... ويسلط هجومه ضدهم وربما يفتري عليهم!!

وعندما تتحدد المسؤولية الثقافية تظهر الحقيقة ناصعة للجميع.. وأحسب أنه لا الثقافة ولا الجهاز الثقافي الإداري مسؤولان عن التغيير الثقافي ولا حتى عن إنتاجها الثقافي.. وإنما مسؤوليتهما تنحصر في توفير بيئة الحرية والديمقراطية التي تتسق ونشاط الرسالة التنويرية التي يضطلع بها المثقف.. وقد وفّر مشروع الإصلاح البحريني بيئة الحرية

والديمقراطية والتعددية للثقافة وأجهزتها الإدارية الوزارية وهيّأ الظروف الملائمة للمثقف التنويري كي يقوم بدوره في إنتاج ثقافة جديدة ترتقي إلى الوضع القائم في التغيير وإعادة إنتاج التغيير الثقافي.. لا أن يُترك الميدان الثقافي لأنشطة القوى الأصولية من الإخوان والسلف والخمينية!! إذن فبيئة العمل الثقافي في الحرية والديمقراطية والتعددية متوافرة أمام المثقف التنويري لتحريكها وتنشيطها وإدارة كؤوسها الثقافية إدارة عقلانية تمهيداً لبناء ثقافة جديدة..

وأحسب أنه لو اضطلعت النخب الثقافية التنويرية بحراك أنشطتها على الوجه الأكمل والأشمل في عمق هذا الانفتاح التاريخي الثقافي الذي وُفِّر في نشر الثقافة التنويرية والعمل بصدق ونكران ذات ثقافية على رفع الوصاية عن العقل والضمير لما أصبح المجتمع الثقافي الذي عُرف بالانفتاح والتسامح والتراضي والتفاهم في المحبة وقبول الآخر بهذا الوضع الاجتماعي الذي **ينم عن انتشار ثقافة الحجاب والشادور والنقاب السلفي والإخواني والخميني**.. وينم عن التطرف والتشدد والتكفير والإقصاء والتمييز الطائفي وتفشي الخرافة وذيوعها في الأُسر والبيوت المعدمة والمترفة على السواء.. الأمر الذي أعطى دوراً مريحاً للتيارات الأصولية والسلفية والإخوانية والخمينية في توسيع أنشطتها الفكرية

والأيديولوجية وفي الأخذ من الدين أساليب وأدوات خرافية غير عقلانية وتكبيل عقل الجماهير بفتاوىٰ فاسدة لا تمتُّ إلى سماحة الإسلام وحنفيّة تسامحه بشيء عدا الأغراض السياسية والمنافع المصلحية. .

في الوقت الذي انخرط الكثير من المثقفين التنويريين أو المحسوبين على التنويرية في العمل السياسي وراحوا يكيلون في الخلط بمكيال الثقافة والسياسة في أنشطتهم حتى مع التيارات الأصولية والخمينية التي هي في الأساس تستمد منابعها الثقافية من أصولية وسلفية وإخوانية وخمينية معادية لرسالة الثقافة التنويرية في الجوهر. . حتى إن المثقف التنويري تماهىٰ بشكل عام ولم يستطع أن يفصل بين طابع العمل الثقافي وطابع العمل السياسي وأوشك أن يفقد هويته الثقافية ورسالتها التنويرية في بناء عقل الإنسان التنويري وتأهيله ديمقراطياً وإنسانياً في دوره التاريخي في المجتمع. . وقد ارتمت الجماهير في أحضان الأصولية والسلفية والإخوانية والخمينية بعد أن غاب المثقف التنويري عن الساحة وانغمر في هامش تطلعاته الذاتية وتنكر حتى لماضيه التنويري على إيقاع ارتعاشات رُعب ماضي وجدانيّة افتراءات. . ما أنزل اللَّه بها من سلطان.

وقد تكون الحالة المعيشية الضيقة أدّت إلى عزوف

المثقفين التنويريين عن مصداقية رسالتهم التنويرية في مواجهة واقعهم الثقافي الذي تتناهبه قوى الأصولية والإرهاب والظلام حالة متشابهة في الساحة العربية الثقافية وإن تباينت تفاصيلها. . إذ نرى الكاتبة المصرية اللامعة الدكتورة منى أبو سنة تقول: «أين ذهب المثقفون؟! وهل كان لهم دور في مواجهة هذا التيار الأصولي المتخلّف المهيمن على عقول المصريين؟! انشغل المثقفون سواء داخل المجلس الأعلى للثقافة أو خارجه بأولويات حددوها لأنفسهم ليس من بينها تنوير الجماهير وتنحصر هذه الأولويات في الهجوم على سياسة الدولة داخلياً بدعوىٰ محاربة الفساد وخارجها بدعوىٰ محاربة التطبيع ومؤازرة القضية الفلسطينية والقضاء على الصهيونية والاستعمار وبذلك تحول المثقف عن العمل الثقافي إلى العمل السياسي الحزبي الطابع حتى لو لم يكن منتمياً إلى حزب معيّن ومن ثم فَقَد المثقف هويته وهي بناء عقل المجتمع من أجل تأهيل الجماهير لممارسة دورها في تأسيس الديمقراطية التي تقوم على حكم الشعب لنفسه بنفسه مما يستلزم جماهير متنورة وقادرة على المشاركة السياسية بفكر ناضج وعقلانية».

وأحسب أنه لم يخرج إلى نور المطابع والحياة حتى الآن إلاَّ القليل من نصوص عربية ثقافية واعدة في صدق استنارتها

الإبداعية الإنسانية لا في القصة ولا في الرواية وعلى خشبة المسرح ولا في الشعر والأدب والفن والغناء في إدانة الإرهاب والتطرُّف والإقصاء والتكفير ضد أنشطة الإسلام السياسي السلفي والإخواني والخميني الذي يقوم بتغييب الحقيقة الثقافية المستنيرة وتشويه معالمها الإنسانية والعقلانية في وعي الجماهير وتحويلها إلى بيادق يحركها كيفما شاء وأراد في المجتمع لمصالحه ومطامعه السياسية وفي تشويه إرادة الحرية الإنسانية المستنيرة لدى الشباب والشابات ودفعهم إلى أتون الجهل والظلام والسواد!!

* * *

ويؤدي مثقف السلطة دوراً ثقافياً ممالئاً للسلطة وطبيعتها الطبقية.. وينهج منهجاً ثقافياً وفكرياً لا يخرج عن إطار سياستها وتوجهاتها السلطوية.. ويقوم مثقف السلطة بهذا الدور الثقافي والفكري والإبداعي في تكريس سياستها والدفاع عن رموزها وقيادتها. وقد أدرك مثقفو السلطة وسلاطينها وملوكها وأُمراؤها أهمية الثقافة في تثبيت سلطانهم ونفوذهم في تطويع الجماهير وإخضاعها واستغلال وسائل الثقافة الإبداعية والفكرية في التأثير وتغييب الوعي الاجتماعي والسياسي والفكري وقلب الحقائق لمصلحة القوى القابضة

على مقاليد الحكم.. وقد كان مثقف السلطة الذي يقتات على موائدها ويرتزق من هباتها وعطاياها ويحظىٰ بعنايتها المادية والفكرية محط توجس ريبة وحذر من المجتمع لعدم صدقية مثقف السلطة وإيمانه بالثقافة وحقيقة رسالتها التنويرية والإبداعية والإنسانية.. ويحظى مثقف السلطة بمراكز مهمة وحساسة في أجهزة السلطة الحاكمة لكونه مثقفاً سلطوياً خانعاً ذليلاً سامعاً مجيباً وليس مثقفاً عضوياً تنويرياً مكافحاً يرفع الأعلام الثقافية التنويرية والإنسانية والإبداعية عالية خفاقة في وجه الظلام والظالمين.. ومنذ أمدٍ حدد الدكتور علي الوردي الدور الرجعي والظلامي الذي يؤديه مثقفو السلطة وأطلق عليهم لقب (وعّاظ السلاطين) الذين يتنافسون في الوعظ الديني والأدبي والفقهي والشعري مطالبين المجتمع بالخضوع والسمع والطاعة لمظالم السلطة وظُلاَّمها.. ويقول الدكتور علي الوردي في كتابه «وعّاظ السلاطين» وكأنه يخاطب مثقف اليوم: «والغريب أن الواعظين أنفسهم لا يتبعون النصائح التي ينادون بها فهم يقولون للناس: نظفوا قلوبكم من أردان الحسد والشهوة والأنانية بينما نجدهم أحياناً من أكثر الناس حسداً وشهوة وأنانية». ومثل هذه الخصال تراها تستوطن الكثيرين من المثقفين المتحذلقين الذين يتباهون بالثقافة التنويرية إلا أنهم في الوقت نفسه يحلمون أن ينتزعوا الأدوار والمراكز ذاتها بمالها وجاهها

ونعمها من بين أيادي مثقفي السلطة ويمارسوا نشاطهم الملتبس فهم إذ يرجمون بعض المراكز الثقافية بالحجارة فإنهم لا يرجمونها لوجه الثقافة ورسالتها التنويرية وإنما يتنفسون عفن ذواتهم المترعة «بأدران الحسد والشهوة والأنانية» كما يقول الدكتور علي الوردي والذي يضع قلمه على منابت المخاطر الاجتماعية في العزوف عن الاختلاط الذي كرّسه مثقفو الظلام والإرهاب سواء داخل السلطة أو خارجها.. فليس مثقفو الظلام بالضرورة من مثقفي السلطة.. إذ يقول الوردي: «دأب وعّاظنا على تحبيذ الحجاب وحجر المرأة فنشأ من ذلك عادة الانحراف الجنسي في الرجل والمرأة معاً فالإنسان ميّال بطبيعته نحو المرأة والمرأة كذلك ميّالة نحو الرجل فإذا منعنا هذه الطبيعة من الوصول إلى هدفها بالطريق المستقيم لجأت اضطراراً إلى السعي نحو طريق منحرف».. ويؤكد الوردي في كتابه «وعّاظ السلاطين»: «وقد دلت القرائن على أن المجتمع الذي يشتد فيه حجاب المرأة يكثر فيه في نفس الوقت الانحراف الجنسي من لواط وسحاق وما أشبه».

وقد لعب وعّاظ الظلام ومثقفوه من الإقصائيين والتكفيريين على مرّ التاريخ أدواراً مُهينة في تكريس ازدراء وتهميش المرأة في المجتمع واستباحة إنسانيتها وكرامتها.. ويُخيّل لي ـ والكلام للوردي ـ أ"ن الطغاة وجدوا في

الواعظين خير معوان لهم على إلهاء رعاياهم وتخديرهم فقد انشغل الناس بوعظ بعضهم بعضاً فنسوا بذلك ما حلّ بهم على أيدي الطغاة من ظلم».

إلا أن الثقافة عصيّة في طبيعتها كما هي عصيّة في وجدانية المثقف وضميره وقد تجلو بها الموهبة الإبداعية حتى لدى مثقف السلطة ويخرج على تقاليدها السلطوية وقد عرف التاريخ الكثيرين من المثقفين الذين انشّقوا على السلطة وراحوا «ينعقون» خارج سربها مثل الكاتب باسترناك أيام الاتحاد السوفياتي وسولجنستين وقد وُصفوا بالكُتّاب المنشقين على الاشتراكية..

وفي أحيانٍ كثيرة تصبح الملكة الإبداعية أو الموهبة لدى المثقف هي سيدة موقفه التي تُخرجه عنوة خارج النص أو تبقيه.. وهناك الكثيرون من المثقفين الذين قلوبهم مع الثقافة وأقلامهم عليها.. قياساً على المقاتلين الإسلاميين في التاريخ الذين قلوبهم مع الحسين وسيوفهم عليه!!

ويمكن رؤية المشهد الثقافي في المجتمع من واقع مشهد أنشطة المثقفين وترسّلهم الثقافي التنويري الإبداعي والإنساني أكانوا مع السلطة أو ضدها.. ولا يمكن قياس مثقف السلطة في المجتمعات المدنية والديمقراطية ودولة القانون والمؤسسات قياساً بمثقف سلطة الدكتاتورية والعبودية والاستبداد والحكم المطلق.. وثقافة:

مـا شـئـت لا مـا شـاءت الأقـدار
فـاحـكـم فـأنـت الـواحـد الـقـهـار
وكـأنـمـا أنـت الـنـبـي مـحـمـد
وكـأنـمـا أنـصـارك الأنـصـار

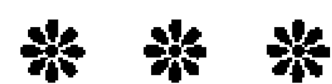
ابن هانئ الأندلسي (938ـ973م)

ولا يمكن مقاربة أو مقارنة مثقف السلطة في عهد صدام حسين مثلاً بمثقف سلطة ما بعد سقوطه في مزبلة التاريخ!!

وأحسب أن مثقف السلطة المدنيّة المعاصرة يؤخذ ضمن نسبيّة ترسلات أنشطة الثقافة الإنتاجية والإبداعية والتنويرية داخل السلطة وخارجها في حراك مثقف «غرامشي» الذي حدده تحت اسم (المثقف العضوي) وقد يكون هناك من هو في السلطة أو من المحسوبين عليها تراه في صمتٍ وهو يترسل ترسلاً ثقافياً وفكرياً إنسانياً تنويرياً فإنما هو خيرٌ من ألف مثقف تنهش أنانية ونرجسية الحسد صدره!!

إن إشكالية بعض المثقفين كونهم أسرى جمود العداء التاريخي للسلطة وأجهزتها القمعية دون إدراك التحول الاجتماعي والسياسي والاقتصادي والظروف الدولية التي أدّت إلى تحول «نوعي» في طبيعة السلطة وأجهزتها القمعية.. ولا يمكن النظر إلى مثقف سلطة قانون أمن الدولة ومثقف سلطة مشروع الإصلاح والميثاق الوطني لدى مملكة البحرين على

قدم المساواة الذي أعاد كرامة وإنسانية الوعي في الثقافة وأعطى الحرية والديمقراطية والتعددية للمثقفين على اختلاف توجهاتهم الفكرية والإبداعية وتنوع مشاربهم الأيديولوجية والسياسية.. ورغم تحول هذا الفتح الثقافي في ضمير الثقافة والمثقفين تبقىٰ الدودة النرجسية تنخر ذات الكثيرين من المثقفين الطافحة نفوسهم بالحسد والشهوة والأنانية كما نستعيد ذاكرتها في كتاب «وعّاظ السلاطين» للدكتور علي الوردي..



لا سكون في الأدب وثقافته... إنهما يستمدان تلون نسقهما من تلون التاريخ والجغرافيا. ومنذ القديم كان السكون يُمسك بتلابيب ثقافة الأدب ويبتهج بها في طلول الماضي:

وتلفّتت عيني فمذ خفيت
عني الطلول تلفّت القلب

وقد ارتطبت ثقافة الأدب النقدية في الخليج والجزيرة العربية بأقانيم الثقافة المصرية وراحت تنهل من منابع غثِّ قديمها وسمين حديثها.. فللغث حواريوه وللسمين حواريوه.. وكانت مدرسة طه حسين عميد الأدب ومحمود العقاد وتوفيق الحكيم هي السائدة على الساحة الثقافية الأدبية النقدية ضمن نمطيّة سكون نظرتها التقليدية إلا أن حدثاً ثقافياً وجدانياً حرّك مياه الساحة الأدبية والثقافية ليس في مصر وإنما على الساحة العربية الثقافية برمتها وهو ما تجلىٰ نقداً حداثياً في صفحات كتاب «في الثقافة المصرية» لمؤلفيه الدكتور محمود أمين العالم والدكتور عبد العظيم أنيس وقد أثار الكتاب جدلاً ما انفك حتى يومنا هذا يلاحق المفاهيم

النمطية التقليدية البائسة التي ما انفكت تغرف حتى يومنا هذا من تراث ثقافة فقدت صلاحيّة جدواها وتجاوزها الزمن!!

إن ما نبش ذاكرة الخمسينيات هو ما ارتبط برحيل فقيدي الثقافة النقدية اليسارية الكبيرين محمود أمين العالم وعبد العظيم أنيس اللذين كان لهما الفضل الأول في إيقاظ الثقافة الأدبية النقدية في الحداثة والتحديث في وجه نمطية المحافظة الأدبية إثر مقالة نشرها عميد الأدب الدكتور طه حسين بعنوان «صورة الأدب» في جريدة الجمهورية المصرية بتاريخ 5/ 2/ 1954 وكان الجدل يدور حول جدل العلاقة بين الصورة الأدبية ومادتها في صياغة المضمون: أي بين شكل المادة وأدبية محتواها وفي عدم فصل حركة الحياة عن حركة ثقافة أدب النقد التي بها يتفجر الإبداع الفني بين جوانبها ويُثري حركتها.. بعيداً عن السكون والجمود في الأصولية الأدبية النقدية التي كرّسها عميد الأدب في مقالته آنفة الذكر.. إذ يؤكد عميد الأدب «بأن العمل الأدبي كالموسيقى والنحت والرسم والتصوير على أنه متعة لروحك وغذاء لقلبك.. وعند ذلك ليكن جمال الأدب حيث يمكن أن يكون ليكن في الألفاظ أو في المعاني أو في النظم والأسلوب أو في هذا كله.. والأدب آخر الأمر فن من الموسقى تأتلف من هذه الأشياء كلها من الألفاظ والمعاني والأساليب وما يفرض

من صور وما يثير من عواطف وما يبعث من شعور.. وإلا أصبح كدنٍّ أبو نواس»:

ما زلت أستل روح الدن في لطف
وأستقي دمه من جوف مجروح
حتى انثنيت ولي روحان في جسدي
والدن منطرح جسماً بلا روح

ويرى العالم وأنيس: «إن الأدب صورة ومادة وصياغة مضمون إلا أن صورة الأدب كما نراها ليست هي الأسلوب الجامد وليست هي اللغة بل هي عملية داخلية في قلب العمل الأدبي لتشكيل مادته وإبراز مقوماته ومادة العمل الأدبي ليست بدورها معاني ـ كما يقول عميد الأدب والمدرسة القديمة ـ بل هي أحداث لا من حيث إنها أحداث وقعت بالفعل ويشير العمل الأدبي إلى وقوعها بل هي أحداث تقع وتتحقق داخل العمل الأدبي نفسه ويشارك التذوق الأدبي في وقوعها وتحقيقها».

وأحسب أن الصورة والمادة أو الصياغة والمضمون في عملية البناء الأدبي تفقد جمالية هويتها الأدبية إذا فقدت جوهرها الاجتماعي.. والصورة والمادة الأدبية تستجلي وجدانية المتلقي في استجلاء علاقة جدل جمالية صياغة المضمون الأدبي في المجتمع.. ولا قيمة لمدرسة أدبية تهتم بشكل الصورة والمادة وتدير ظهرها للمضمون الاجتماعي

الذي بدون رائديّة هذه المضامين الاجتماعية تفقد الصورة والمادة الأدبية توهجها الجمالي وتصبح صورة ومادة أدبية خاوية عشوائية المعنى في جمالية توهج صورتها الأدبية..

ويؤكد العالم وأنيس قائلين: «ولكننا لا نستطيع أبداً أن نحصر الصورة في حدود اللغة.. ونضيق المضمون في نطاق المعاني كما يفعل عميد الأدب ويشايعه في ذلك مدرسته النقدية الإبداعية.. لأننا نعد الإبداع الأدبي مرحلة تتجاوز طلاوة الأسلوب وتفوق لطافة المعنىٰ ولأننا نعد العمل الأدبي بناء تتكامل صورته ومادته بعملية باطنة فيه وهي كماله وحقيقته».

رحم اللَّه عبد العظيم أنيس ومحمود أمين العالم.. فقد طابا فينا روحاً وفكراً وعملاً مستنيراً ورحلا عنا وما زالت وستبقىٰ ذاكرتهما الثقافية والنقدية تثري نفوسنا وتتوقّد في عقولنا!!

* * *

يشكِّل النقد التنويري عاملاً مهماً في ثقافتنا العربية.. ويدفعها من حالة الركود والبؤس وظلام الجهل.. إلى حالة الحراك الاجتماعي وحقنها بدماء جديدة واعدة!!

إن النقد التنويري يشكِّل حالة واعدة في ثقافتنا العربية.. ويدفعها من أوضاع السكون والتخلّف وظلام الجهل إلى أوضاع الحراك الاجتماعي الثقافي التنويري!!

فالتنوير يرتبط بالعقل وحرّيته الكاملة في تأمل الحياة واكتشافها وتغييرها وفي قراءتها قراءة موضوعية عقلانية وتوظيف الحلول الناجعة بغية تحريرها وتنقيتها من جميع رواسب الظلام ومظالم المجتمعات البائدة.. التي تآكلت وتجاوزها التاريخ!!

إن النظرة التنويرية نظرة تغييرية لسائر الأوضاع في الحياة ونمطيتها.. وهي تعني حرية إرادة الإنسان العقلانية.. وحقه في الحرية تجاه حلحلة الأوضاع المادية والفكرية وتنقيتها من مخلفات الماضي.. وحقنها بدماء جديدة تنويرية!!

إن التنوير حقيقة جدلية شاملة وعمومية تجاه قطاعات المجتمع المادية والفكرية.. ولا يأخذ حقيقة أهميته التنويرية

الفاعلة إذا اقتصر على ناحية في المجتمع وترك النواحي الاجتماعية الأخرىٰ!!

التنوير يستضيئ بحرية التنوع والتعدد... وهو بطبيعته تعددي تنوعي في تعدد وتنوع الحياة.. والتنوير لا ينفرد به عقل بشري واحد.. بل عقول بشرية متعددة متنوعة في تغيير الحياة!!

ولا يمكن أن تستقيم مصداقية العقل التنويري لدى المثقف إذا تشتتت مواقفه ورؤاه «التنويرية» فيما يجوز وما لا يجوز.. والمثقف الذي يتوجس الاقتراب من دائرة (التابو) ويدور حولها.. ولا يقتحم أعماقها ويُعمل عقله فيها ويبدد زيفها.. فإنه يبتذل المفاهيم التنويرية ويسيئ إلى قِيمها!!

يقول الكاتب المصري المرموق الدكتور جابر عصفور: «أنا أرىٰ أن كلمة التنوير ابتذلت من بعض الذين يستخدمونها.. وهم لا يدرون بالضبط ما معنىٰ التنوير ولا ما هو المقصود منه.. التنوير يعني أولاً استخدام العقل بحرية كاملة في كل مجالات الفكر السياسي والديني والأدبي وهو يعني أيضاً سيادة الفكر العقلاني الحر الملازم لوجود دولة مدنية أساسها المواطنة، هذه الدولة لا تميِّز بين المواطن بسبب الدين أو اللون أو العرق أو اللغة وبالتالي أول مبدأ من مبادئ التنوير حرية العقل والعقلانية.. وثانياً الدولة المدنية تقوم على المواطنة الحقيقية التي لا تميِّز بين أبنائها

وفي الوقت نفسه تحترم التنوع البشري وتعتبره تنوعاً خلاّقاً.. والتنوير حزمة متكاملة ولا يجوز أن نأخذ منه جزءاً ونترك أجزاء».

وتفتقد مجمل الدول العربية والإسلامية شروط العناصر التنويرية.. وبهذا فإنه ليس من العبث أن نرى هذا التخلف الضارب في أوصالنا الثقافية والعلمية والمعرفية ومجمل حياتنا الاجتماعية التي يخيّم عليها ظلام الجهل والإرهاب والتخلّف.. ويلعب الإسلام السياسي دوراً خطيراً في كمّ أفواهنا وقمع عقولنا وإرهابها بمبادئ الإقصاء والتكفير!!

لقد حول الإسلام السياسي الدين إلى مشروع سياسي في الاستفزاز والشحن والإرهاب والتكفير.. واستثماره للمنافع السياسية وفي كل ما تحمله السياسة من زيف وخداع وتآمر وإرهاب واعتداء ومتاجرة بالقِيم الإنسانية والروحية التي تُعرّض الدين إلى مزاعم المغرضين على صعيد الداخل والخارج.. وتشويه قيمه الإنسانية الخالدة..

التنويرية والليبرالية الديمقراطية مفاهيم مناهج عقلانية موضوعية مترابطة تستجلي العقل في مواقفها الإنسانية في الحداثة والتحديث على طريق تعميق المجتمع المدني ودولة القانون في الحرية والديمقراطية والتعددية وحقوق الإنسان.. وهي الطريق الأسلم إلى الإصلاح.. ولا يمكن الحديث عن الإصلاح دون إطلاق عناصره الضرورية في المجتمع التي

تعني إطلاق عقل الإنسان على طريق الليبرالية والتنويرية والديمقراطية، هذه القنوات الإنسانية المترابطة تضع المجتمع وجهاً لوجه في الإجهاز على معاقل الإرهاب والإقصاء والتكفير وترتقي بالمجتمع إلى مصاف الدول الحضارية التي تشق طريقها إلى مجد العلوم والمعارف الإنسانية في اكتشاف مجاهل الأرض وأبعاد سماواتها!!

* * *

لعلنا نُدرك أن على الجبهة الثقافية.. تدور رحىٰ الصراعات الفكرية.. فإن مرجعية المقتضيات الأخلاقية الثقافية عليها أن تنزع إلى إدارة ظهرها للسياسة واستفتاء ملكة الإبداع في المنتج الثقافي الإنساني!!

وقد يأتي السؤال مُتخشباً بليداً فجاً... وهل يمكن فصل الثقافة عن السياسة دون الإدراك بأن المثقف في نسبية رؤيته الثقافية الإبداعية.. وإذا فقد هذه النسبية تماثل للمطلق... وفقد إنسانيته الثقافية.. أي فقد ثقافته ولم يستحق أن يُدرج في شرف لائحة الثقافة!!

فالثقافة حركة إبداع صاعدة ترتقي فوق مسلمات الحياة في الطبيعة والفكر والمجتمع.. وهي تستجلي بملكة العقل والإبداع والخيال حركة الطبيعة والفكر والمجتمع وتعيد صياغة إنتاجها فكراً ومادة إنسانيين مبتهجين صعوداً حتى الشمس!!

وتتجلىٰ سلطة الثقافة في سلطة الإبداع الذي لا سلطان عليه في تضاريس نوافل الماورائية!! وعلى المثقف أن يُدرك خصوصية الثقافة الموشّجة بسلطان الإبداع المطلق في

نسبيته.. والمثقف الذي لا يستوعب ذلك قد يُسيئ إلى نفسه وإلى الثقافة!!

وعندما تصبح الثقافة تصيّداً وبرامج أحابيل وأكاذيب وافتراء وهي ـ قد تجدها ـ في الدول المتردية بالفقر والجهل والمرض التي تتصدع الثقافة فيها بالغرور والعنجهية والتعالي على الآخر... والمثقف الذي يجد شيئاً من ذلك عالقاً به عليه أن ينزعه ويلتحق بركب المثقفين النابض بشرف التواضع.. فالثقافة تواضع والتواضع ثقافة حقيقية..

وعندما تتجلىٰ الثقافة بملكة التواضع تقترب من اكتشاف الحقيقة.. ولا يمكن اكتشاف حقيقة المثقف إلا بالاقتراب منه وتحريك حقيقته الثقافية باستدلال عفو تواضع عرفان تثاقف الإنسان بأخيه الإنسان!!

وإذا كان هاجس الإنسان غاية لا تُردك.. فإن هواجس المثقف ـ على وجه الخصوص ـ غايات كثيرة لا تُدرك!!

ولم تلتئم يوماً على امتداد التاريخ فئة المثقفين بل كان الخلاف والتصدع والتذبذب يتنافر تشرذماً من فئةٍ إلى فئةٍ أخرى!!

إنها حالةٌ تُلاصق طبيعتهم وتجدد خلافاتهم الفكرية والثقافية فكيف يمكن إدراك هاجس مثقف... تُحذلق نرجسيته شياطين أهوائه؟!

المثقف تركيبة تفاصيل نفسية ونرجسية معقدة.. وإن تفاصيله هذه بالضبط مأوىً للشياطين الزرق!!

إن خواطر المثقف تجسِّد ذاتية تشعب النرجسية لديه.. إلا ما استثنته الطبيعة في هذا الخصوص.. وإذا تعفّنت الثقافة بنرجسية فساد الذات فاقرأ عليها السلام!! وكان على الجبهة الثقافية... لغطُ القيل والقال وكثرة السؤال وإضاعة المال.. وأحسب أن ما زاد الطين بلة هو «غلغصة» السياسة في الثقافة أو حشو الثقافة بالسياسة.. وهو ما أفسد النظرة الموضوعية الثقافية النقديّة بشكل عام!!

وكانت النظرة العدميّة السياسية التي أفسدت النظرة العقلانية للثقافة.. هي الموقف الدوغماطيقي تجاه الثقافة التي يرى بعض المثقفين أنها ثابتة لم تتغيّر.. وأنها لا تزال تدور كالسابق في الماضي الثقافي سيئ الصيت وأنها غير جادة في الذهاب إلى التحول والتغيير وهي نظرة ثقافية عدمية مترددة متشككة عاجزة أن تستوعب قانون التحول الثقافي والفكري في جدل الحراك الثقافي في المجتمع.. وهي نظرة ذات تأثيراتٍ ماضوية عبثية عدمية ظلامية تتعثر في مسار عبثيتها السياسية المحافظة... ولا يمكن أن يتسلح بوعي ثقافي جدلي واعد من لم يُفرّق بين ثقافة الأمس وثقافة اليوم.. إلا واهم لا يزال يلامس برعاف أنفه ثقافة أكل عليها الدهر وشرب...

والثقافة إطار شامل للجميع وفضاء واسع متنوع متعدد للأفراد والفئات والطبقات وجميع شرائح المجتمع.. ولا أدري لماذا يتم إقحام ماضي الثقافة في حاضرها... فغث ماضيها ولىٰ وسمين حاضرها ترانا نعيشه ونحاول تطويره وتحريره من رواسب ثقافة انتهت صلاحيتها الثقافية والفكرية..

ولا يمكن أن يحمل شرف ثقافة مستنيرة المثقف الذي ينأى بموقفه الثقافي ويركن إلى قذفها بالحجارة من بعيد: إنه مثقف عدمي لا يرتقي إلى مثقف «غرامشي» العضوي... والثقافة يمكن تغييرها من الداخل في الالتصاق بها ومحاورتها بروح العقلانية لا بروح الشللية والنرجسية الحمقاء.. أو قذفها بالحجارة.. ومن كان منكم بلا خطيئة ثقافية فليرمها بالحجارة!! وفي ذلك رمز أخلاقي ثقافي واعد لسيدنا المسيح..

* * *

إن فضاء ما نكتب لا يخرج عن فضاء رقابة هذا الثالوث المرعب الذي يمسك بنا ضمن تابو رقابي صارم.. ويتجسد هذا الثالوث الرقابي: في وجدانية الرقابة الذاتية لدى الكاتب وفي وجدانية رقيب الجريدة... وفي وجدانية المجتمع الرقابية.. وهذا ما يعرف في الأدب بمسؤولية الحرية لدى الكاتب والأديب والمبدع والفنان بشكل عام!!

صحيح أن الحرية ضمن المسؤولية الاجتماعية.. وكلما ضاقت وتعرّجت جداول مصبات الحرية.. ضاقت وتعرّجت جداول مصبات المسؤولية.. والعكس صحيح أيضاً.. وهو ما ينعكس في أداء رقيب الثالوث في الوجدانية الثقافية الاجتماعية!!

وإذا أدركنا قيمة الحرية وأهميتها الإنسانية والوطنية والتنموية.. أدركنا بالضرورة قيمة المسؤولية التي تحدد أُطر الحرية لدى الكاتب أو المبدع أو الأديب والفنان وفي هيمنة الثالوث الرقابي عليه.. وقد تضيع المسؤولية وتتشتت وتنتهك باسم الحرية.. تماماً كما تضيع الحرية وتتشتت وتنتهك باسم المسؤولية!!

إن جدلاً قائماً منذ الأزل بين الحرية والمسؤولية.. فالحرية في أبعادها الإبداعية والإنسانية وبطبيعتها الخلاّقة والمرتبطة بملكة المبدع وتمرد الموهبة لديه تدفع بتجاوز شروط المسؤولية عليها وتكبيل الحرية إن جاز التعبير بقيود المسؤولية...

بهذا لا ندعو إلى حرية الفوضىٰ ونسف المسؤولية عنها.. وإنما حرية تأخذ مسؤوليتها العقلانية وتوهجها الإنساني: أي تأخذ دورها على مسؤوليتها.. وليس مسؤوليتها على دورها... وبهذا أيضاً يتحرر الكاتب والمبدع وينفض قلمه من دبق ولزوجة الثالوث الذي يطل عليه في ذاته ومن ذاته.. ومن ذات رقيب الجريدة.. ومن ذات رقابة المجتمع!!

إن أشد الألم على نفسية الكاتب أو الأديب أو المبدع أو الفنان.. هو هذا الرقيب الوقح في ذاته.. وخارج ذاته في الجريدة والمجتمع.. والرقيب الثقافي الذي لا يتألم ولا يحس بتمزيق نفس الكاتب أو المبدع والفنان وهو يمزق إنتاجه ويدفعه إلى سلّة المهملات بحجة أنه تجاوز مسؤولية الحرية هو هذا الشرطي الثقافي التافه الذي ما برح يطفئ الكلمات المضيئة ويحيلها إلى رماد... مُتصدياً باسم «المهنية» ولقمة العيش لكتاب وتيارات الأدب التقدمي والعلماني في جرائدنا ومجلاتنا العربية!!

أقول «لرؤوف» ذلك الغزال الجميل النافر في جريدة (اليوم) من يطفئ بعض الكلمات المضيئة في ما أكتب.. فيبتسم بلطف وأريحيّة وشيء من الخبث ويقول: ألا يكفيك إضاءة الكهرباء عندنا؟!

وإن شر بلية كتاب الجرائد عندنا أن سفارات بعض الدول العربية والإسلامية تقف لهم بالمرصاد وتشي بهم لدى السلطات ضد ما يكتبون حول المهازل والجرائم والممارسات غير الأخلاقية وغير الإنسانية التي تقترفها هذه الدول بحق أبناء شعوبها والاعتداء على كرامة نسائها... أما سفراء وسفارات الدول الأوروبية البريطانية والفرنسية والصين والولايات المتحدة وروسيا فإنهم يبتهجون إذا تعرض أحد كُتاب أعمدة الجرائد بنقدهم والتعرض إلى بعض الأوضاع عندهم لثقتهم واعتزازهم بالحرية في أوطانهم هذه الحرية التي تسيطر بضفاف طبيعة حريتها على مسؤوليتها وليس العكس!!

الحرية مسؤولية... وليست المسؤولية حرية... أي إن السيطرة والتوجيه والقيادة والتأثير تأتي من الحرية على المسؤولية وليس العكس.. وإذا سيطرت المسؤولية على الحرية تنامت الإرهاصات الدكتاتورية واستبدت المسؤولية بالحرية.. ولم يعد للحرية واقع يذكر في المجتمع!!

والمسؤول الصحافي المستنير في صحافتنا العربية عليه أن يتوهج في الحرية فيما يقدمه المبدع من نقد وإبداع ولا يقيم

وزناً متصلباً لمسؤولية الحرية:.. فالإبداع فوق شروط مسؤولية الحرية.. والرقيب الصحافي الذي لا يُدرك ذلك يتحول بالضرورة إلى شرطي... سيدي لا تكن شرطياً مذموماً في الإبداع!!

* * *

إن سلطة الرقابة.. ورقابة السلطة هما رابط الجدل في الظلام والتقهقر.. وإن ما يناقض ذلك هو رابط الجدل في التنوير والتقدم الذي يشكل سلطة الثقافة في الحرية.. وسلطة الحرية في الثقافة!!

ولا يمكن الحديث عن الثقافة إلا في فضاء الحرية.. الذي يُشكل أوكسجيناً متنفساً للثقافة يمدها بإكسير النمو والتطور والتجدد في الحياة!!

إن أدائيّة الثقافة حرّية.. كما أن أدائية الحرية ثقافة: إن هذا التجسيد الثنائي بين الثقافة والحرية هو الأوكسجين الذي يُثري ويجدد وينمّي حراك المثقفين من الكُتّاب والمفكرين والصحفيين والمبدعين والفنانين في المجتمع.. ويدفع الثقافة الوطنية والإنسانية إلى مجد تألقها!!

في ندوة «آليات الرقابة وحرية التعبير في العالم العربي» التي نُظمت في مكتبة الإسكندرية بالتعاون مع المركز القومي المصري للترجمة حملت شهادات المتداخلين من الكُتّاب والأدباء والمثقفين والمبدعين العرب على سلطة الرقابة ورقابة السلطة في أجهزة سلطات القرار السياسي.. التي تأخذ برابط

جدل الظلام والتقهقر وتكرسه على رابط جدل التنوير والتقدم الذي يُشكل سلطة الثقافة في الحرية وسلطة الحرية في الثقافة!!

وقد استهل الفنان مرسيل خليفة شهادته ـ كما تُشير جريدة الحياة اللندنية ـ إلى تجربته مع المنع في «مجنون ليلى» و«أنا يوسف يا أبي» وقدّمها في الجلسة الأولى للندوة وشدد على أن الحرية للثقافة هي شرط وجود ولاحظ أن المثقفين والمبدعين يواجهون ثلاثة أنواع من السلطات متضافرة الأهداف: السلطة السياسية والسلطة الدينية والسلطة الاجتماعية.. وتضمنت الجلسة نفسها شهادة الروائي السوري حيدر حيدر بعنوان (الرقيب السياف) استهلها بعبارةٍ للشاعر المكسيكي أوكتافيو باث: «إن شعباً بلا شعر هو شعب بلا روح وأمة بلا نقد هي أمة ميتة». وذهب صاحب «وليمة لأعشاب البحر» إلى أن الرقابة في بلادنا العربية تبدو كسيف مصلت على أعناق المثقفين الأحرار والتنويريين في إبداعاتهم كافة من الشعر إلى النثر ومن الرواية والقصة إلى الدراسات الفكرية والنقدية حتى مجالات الفنون الأخرىٰ في المسرح والسينما والدراما والفن التشكيلي والفن الموسيقي..

وتحدث الشاعر المصري حلمي سالم عن أزمة نشر قصيدة (شرفة ليلى مراد) والكاتبة الكويتية ليلىٰ العثمان عن أزمتها المتعددة مع الرقابة والشاعر الأردني موسىٰ حوامده

عن تجربة محاكمته بسبب ديوان (شجري أعلىٰ) وقال إسماعيل سراج الدين مدير مكتبة الإسكندرية متحدثاً عن ضرورة مواجهة مشكلة حساسة هي إقحام الدين في ما لا علاقة له به وتحكيم رجال الدين في مختلف شؤون الحياة وانفجار عصر الفتاوى العشوائية وسيادة الدعاة والمحترفين والمتطوعين.. ولاحظ أن الوجه الآخر لهذه الظاهرة المقلقة هو إقحام الدين في تقييم العمل الفني بما في ذلك من فرض رقابة اجتماعية وشرسة من فئة منغلقة متعصّبة على ما يجوز للمجتمع أن يقرأه أو يسمعه أو يراه وذلك لأنها لا ترى رأياً غير رأيها ولا تريد التعددية وثراءها الثقافي في المجتمع..

وتأتي المفارقة جارحة في معاناتها النفسية لدى الصحافي والكاتب والأديب والمبدع من زملاء الدرب الثقافي الذين كانوا يُعانون سلطة الرقابة ورقابة السلطة في كمّ أفواه أقلامهم.. وعندما تسلقوا دوائر سلطة الرقابة.. راحوا يمارسون القمع والاستبداد نفسهما بل أشد إمعاناً من قبل مقص الرقيب ضد ما يكتبه زملاؤهم ويمارسون رقابة متشددة في إطفاء أكثر الجمل إضاءة واستنارة!!

أيها الزملاء الأقدمون... رفقاً بزملائكم...

لك البطش وحدك يا سيدي

لك النص فاجلده

أنىٰ أردت وأنىٰ شطبت

وأنىٰ حذفت..

وأنىٰ رميت.. في سلة المهملات

بجانب سلتك المهملة.

فأنت إله الحروف..

وأنت إله الجمل..

وأنت ربيب القوافي

والمفردات..

وأنت الرقيب الذي

لا يُسل!!

إذا النّص «يوماً أراد الحياة»

مقصٌ الرقيب يُريد العدم!!

* * *

يتبوّأ المثقف أمكنة وظائف متعددة في مؤسسات المجتمع.. وأجهزة السلطة السياسية.. وتتباين المواقف الفكرية والانتماءات الطبقية في شرائح المجتمع وفي التوجهات السياسية للمثقفين بمختلف اتجاهاتهم وانتماءاتهم الفكرية.. وتحرص السلطة السياسية على أن يتأثر دور المثقف بدورها في أنشطة مؤسسات المجتمع المدني وغير المدني.. وقد انقسم المثقف في الدور الثقافي الذي عليه أن يتشكل فيه والارتقاء بمخزون الثقافة الإنسانية والتنويرية فوق توجهات سلطة الدولة السياسية في المجتمع.. وعلى الثقافة أن تكون في عين إنسانيتها الفكرية الوطنية التنويرية.. لا في عين سلطة الدولة القمعية التي تسوِّق دور المثقف لمصالحها السياسية وتشويه دور حقيقته المهنية الثقافية والإنسانية في المجتمع!!

إن المثقف العضوي.. هو نقيض مثقف السلطة: الأول يقوم بتفعيل الثقافة التنويرية في المجتمع.. والعمل ليس على نقد مظاهر القمع والإرهاب والفساد والتسلط وإنما الدفع والمساهمة في التغيير النوعي للمجتمع.. أما الثاني فإنه الذي

يلوّن ويتلون بالثقافة ويزور مبادئها الإنسانية والتنويرية.. وينصاع بشكل أو بآخر لسياسة الدولة ومؤسساتها وأجهزتها القمعية والمثقف السِّلعة هو الذي يبيع مواقفه الثقافية لمن يدفع أكثر بذلّ وبلا حياء!!

إن محنة المجتمع يمكن تحديدها في مثقف السلطة الذي يذود عنها ويدافع عن حياضها ويرى أنها أبداً على حق وغيرها على باطل.. وإن صحافتنا العربية تغص بمثقفي السلطة ومرتزقة أجهزتها البوليسية وتراهم يتبوّأون أعلى مناصبها ويذرعون أعمدتها وافتتاحياتها بمقالاتهم المنمّقة بالآثام آناء الليل وأطراف النهار.. وإن مثقف السلطة له أنف (...) له حاسة شم من عشرات الكيلومترات وتراه بحواسه السلطوية أبداً بتوجيه أو بلا توجيه على إيقاع رتم سلطة القرار وترانيم علاقاتها السياسية والفكرية في الداخل والخارج على السواء!!

وأعجب.. ولا أعجب!! لمن يتبوّأ سلطة إحدىٰ الجرائد العربية... أن يقيس أوضاع العراق بأوضاع أفغانستان ويكيل مكيال أفغانستان بمكيال العراق في انتقاد سياسة الرئيس الأميركي أوباما.. وكان مشيداً في أعمدة سابقة بسياسة أوباما.. وهو لا يتورع الآن عن انتقادها قائلاً: إن المشكلة أن أوباما يكرر خطأ بوش الابن في أفغانستان في إرسال

ثلاثين ألف جندي وكأنه يتوجّد رحمةً وشفقة على جرائم طالبان في أفغانستان وإرهاب القاعدة في كل مكان!!

ويرى أن العراق وأفغانستان أبعد ما يكونان عن الديمقراطية ودول المؤسسات، هكذا يخلط الطيّب بالخبيث والتقدم بالتخلف والتنوير بالظلام... ويرى أن العراق الديمقراطي الناهض في وجه الإرهاب والتخلُّف والطائفية والمخنوق إرهابياً من غدر دول الجوار العربية والفرس على السواء.. هو عراق صدام حسين ذاته.. «وإلا ما كان الفرق ـ كما يقول ـ بين منطق من يحكم العراق اليوم ومنطق صدام حسين».

وأحسب أن مثقف السلطة قد لا يؤمن بما يقول وإنما مبدئية مثقف السلطة ومهنيتها تفرضان عليه أن يطمس ما يعتقده وما يراه فيما تعتقده وتراه السلطة... حتى ولو كان بياناً تزويرياً فاضحاً مثل مقارنة عراق الرافدين بأفغانستان طالبان.. دون أن يرى الحريّة والديمقراطية والتعددية في حراك حرية الأحزاب والمنظمات والتيارات والمؤسسات والصحافة والنشر والحريات العامة التي تتفاعل وتتجدد في صميم المجتمع العراقي على طريق التحول نحو عراق جديد وغدٍ سعيد للوطن العراقي الديمقراطي الموحّد..

إن العراق الحر الأبي المناضل بالرغم من إرهاب أحزمة النسف والتفخيخ وقتل الأبرياء من الأطفال والنساء والعمل

على تزوير وتشويه الهوية العراقيّة التاريخية ليس من قاعدة طالبان والقوى الإرهابية والطائفية فحسب وإنما من دول الجوار التي تنفق الأموال والأسلحة وتروّج الطائفية وتدفع إلى تمزيق العراق بعربه وأكراده وأقلياته القومية والعرقية والقيام بتمويل جرائم الاغتيالات السياسية ضد المثقفين والصحافيين العراقيين الشرفاء وكل ذلك لن يثني مسيرة الكرامة الوطنية والإنسانية العراقية من بلوغ نهايات انتصاراتها..

وإن أشدّ ما يقترفه مثقف السلطة هو القيام بتزوير الحقيقة العراقية الناصعة نحو فجر ديمقراطي تقدمي يعم المنطقة العربية برمتها.. وهذا ما يثير خشية قوى الظلام والإرهاب والتخلف داخل العراق وخارجه.. وهو ما يدفع مثقفي السلطات العربية الرجعية والظلامية ومن على منابرهم الصحافية والإعلاميّة للافتراء والكذب والتزوير على عراق الرافدين ومقارنته زوراً وبهتاناً بنظام طالبان في أفغانستان وعدم التفرقة بينه وبين نظام صدام حسين!!

* * *

المثقف هو من يعيش على حافة الأزمة.. وينجرف إليها في وعي ملتبس.. وهو ما يرتبط بفئته التي تعيش واقعاً متذبذباً في الانتماء الطبقي.. ومنذ فجر الطبقات الاجتماعي كان المثقف يعيش واقع تجاذب فكري وأيديولوجي وفلسفي في الانحياز وتحديد موقف انتمائه الاجتماعي الطبقي..

إن هذا التكوين البنيوي الاجتماعي (البين بين) لفئة المثقفين.. يأخذ خيبات أمل التشرذم والانكسار واقعاً محموم الخطورة في المجتمعات التي تعيش انتكاسات أزماتها الفكرية والثقافية..

وكانت عقارب ساعة المثقفين على مدىٰ التاريخ تراوح في صعود وهبوط من أقصىٰ اليمين إلى أقصىٰ اليسار مُبتلّة أبداً بوسطية مياه انتهازيتها الآسنة.. إلا أن المثقف العضوي الذي يؤكد إيجابيته في الحياة طيب الذكر أنطونيو غرامشي.. استجلت الحياة وتستجلي دوره المميّز في التاريخ.. وكانت الطبقات المستضعفة التي تنتمي إلى واقع استنهاض ثقافي طبقي من فئات وقيادات مثقفة قد تركت بصمات دورها الفردي في التاريخ..

وإذا كانت شدائد وملمات المجتمعات تفرز ما طاب وما خاب من مثقفيها فإن (أنا) المثقف تلعب دوراً محموماً في كشف منسوب الانتهازية لدى هذا المثقف أو ذاك..

والمجتمعات الصغيرة في منسوب عدد سكانها تتكشف انتهازية (الأنا) إلى درجة يمكن لمسها لمس اليد.. ومن يتفقّد حركة (الأنا) في عالم النشاط الثقافي يدرك أن عالم الكتابة هو الأكثر بوحاً وضجيجاً وفضحاً (لأنا) المثقف.. الذي تأخذ به أمواج الميديا إلى جنون تطيّر الأنا وتورّم قربة ذاته حتى تتفجر غروراً مرضياً مزمناً يتعذر علاجه.. وكما يقول المثل السوري: «فالج لا تعالج».

إن جنون الأنا يصل بالمثقف إلى درجة أنه لا يرىٰ إلاّ نفسه.. وإن رأى غيره في حالات نادرة فإنه يرى غيره في منازل متدنية.. أو من منزلة القمم المثقفة ذاتها.. وهو يوحي ولا يُفصح إلا في حالات نادرة.. واللبيب يُدرك كم طفح كيل جنون الأنا لديه..

لا حدود لطغيان الأنا لدى بعض المثقفين الذين بلغت بهم تفاهة الأنا: أن يزفّ إلى قُرائه كل صباح في جريدته وعثاء سفر الذات ومعاناتها النرجسية عبر بؤس ثقافتها (...) وآخر من بعيد يُلقي تعاليمه وتوجيهاته «القيادية» على الجميع ويُذكِّر بمناقبه النضالية ومواقفه الفكرية التي لا تستطيع الشمس أن تشرق إلا على شطآنها..

عندما يبلغ جنون الأنا شأوه المأساوي تنتفي الحقائق من قواميس البشرية وتبقى «حقيقة» الأنا تنعق في جنون خارج حركة التاريخ..

المثقف لا يصبح مثقفاً إذا توحّد في ذاته وتوجّد جنون (أناه) في (أنا) الآخرين.. مثل هذا الموقف المنزوع من الإنسانية يُصبح منزوع الثقافة أيضاً.. فالثقافة في إنسانيتها والمثقف بإنسانيته وموقفه مع الإنسانية في كل مكان.. والمثقف الذي يرى أنه إمامٌ لا يُجارىٰ في ثقافته.. هو مثقف يتعكز على عكاز أنا ذاته.. وهو لا يستحق أن يرقى إلى أتفه برج من أبراج الثقافة.. ولا إلى قن دجاجة أكلت أمعاءها إنفلونزا الطيور..

كيف يمكن أن تبتهج الثقافة التنويرية إذا انطوى المثقف على ذاته وراح يتعبّد على سجادة (أناه) وترك غاشية الظلام ووحوش الإرهاب تسدد حرابها إلى صدر الليبرالية وحرية الصحافة.. كيف يمكن أن يحمل شرف الكلمة وحرية الضمير.. هذا المثقف أو هذه الجهة الثقافية التي تلزم الصمت المطبق وقوىٰ الظلام والإرهاب الإسلامي السياسي تنتهك أعراض الشيوعيين واليساريين والليبراليين في إباحة دمائهم وتحريض الغوغائية الإسلاموية على إباحة دمائهم من على منابر المساجد..

إن على المثقف العربي أن يتفقد صمته.. فالصمت في

مثل هذه المواقف وتجاه مثل هذه الوقائع لا ينم عن موقف ثقافي تضامني كريم!!

في مقالته المسؤولة: «صمت المثقف جريمة» يذكر لنا الدكتور عبد الخالق حسين عن القس مارتين نيمولنر عن جرائم النازية ضد الشعب الألماني في قصيدته:

في البدء جاءوا إلى الشيوعيين
فسكتُّ لأني لم أكن شيوعياً
ثم جاءوا إلى اليهود،
وسكتُّ لأني لم أكن يهودياً.
ثم جاءوا إلى الكاثوليك،
وسكتُّ، لأني كنت بروتستانتياً،
وأخيراً جاءوا إلي،
وعندئذ لم يبق أحد يدافع عني..

إنها عبرة جارحة تنطبق على الذين لزموا صمت القبور وسهام الإسلام السياسي المسمومة تتساقط على اليساريين وقوىٰ الليبرالية والديمقراطية والعلمانية!!

* * *

تتقاطر مياه النفس قطرة.. قطرة.. من ذات اليمين وذات الشمال.. لتشكل وسطاً آسناً في النفس... وتعكس ذات الوسط.. ذات الشخص في الثقافة والسلوك والعمل.. فالنفس خير من يعكس إلهام نفسها.. أمام الآخرين: «فألهمها فجورها وتقواها».

وكان في بيت جد أحد الأصدقاء عبد يُدعىٰ «مرزوق» وكان عبداً كريم الروح قويم السلوك شامخ النفس.. وكان في البيت المجاور له هناك عبد آخر يدعى .. أيضاً «مرزوق» وكلاهما اختطفا من زنجبار وهما من قبيلة واحدة.. إلا أن هذا «المرزوق» الآخر معتوه النفس سافل الخُلُق متطير السلوك.. وكانت النفس هي القاعدة التي فرّقت بين هذين السلوكين.. وأحسب أن الهُوة الثقافية بين «مرزوق» و«مرزوق» يستبطنها مستنقع وسط النفس.. فوسط الأول كان كريماً شهماً ووسط الآخر كان ذميماً نذلاً.. وفي ذلك تكمن عظمة حكمة الآية الكريمة «ونفس وما سوّاها فألهمها فجورها وتقواها» فقد استقامت التقوى في نفس «مرزوق» الأول واعوجّت وتبلدت في نفس «مرزوق» الثاني..

حقاً إن النفس المتعفنة تعكس وسط تعفنها.. جملة جملة.. وكلمة كلمة.. أما النفس النقية فتتجلىٰ نقاءً وطهراً جملة جملة.. وكلمة كلمة..

إن مرحلة العبودية في تجارة العبيد التي كانت تغص بها سواحل الخليج.. ذهبت دون رجعة.. إلا أنها تركت بصماتها الثقافيّة في المجتمع وفي الأسماء وفي نفوس الكثيرين من الأفراد الذين يمارسون قاذوراتها في سلوكهم وعبر وعيهم الباطني.. واستقامت أسماء بعض العوائل تحمل سمة عبوديتها إلا أن البعض أضاف إليها لام التعريف لإبعاد مرجعية سمعة عبوديتها.. ولم يأتِ قانون القضاء على العبودية وإنهاء مظاهرها الذي أقرته هيئة الأمم المتحدة أخيراً من فراغ.. وما تدارسته حكومات عربية وأقرّت تطبيقه في المجتمع.. ليس إلا دليلاً على ترسب ثقافة مثل هذه المظاهر العبودية في النفوس مثل ظاهرة «مرزوق» وظاهرة بعض المثقفين المسكونين بوعي عبودية الماضي الذين تضخ شرايين دمائهم كراهيّة أحقادهم ضد قوى التقدم الديمقراطي.. وحملة أقلام التيار اليساري والليبرالي..

إن تناص النصوص الثقافية بغثها وسمينها تنطوي في كثير من الأحيان على انعكاسات تناص النفوس وتناص الأشخاص وتناص الأوساط وتناص الأفكار.. وتأخذ نفوس بعض الكتبة أوكار تناصها في وسط مؤسسات النشر والصحافة.. وفي غفلة من الزمن تضرب إسفيناً وقحاً لا أخلاقياً ولا مهنياً

في قلب ميثاق الشرف الصحافي.. وهي لا يهمها إلا تحقيق ذاتها المتصدعة بعبودية الذات في نهش لحوم الآخرين بأسنان مسعورة..

إن مثل هذه الأقلام المغموسة في مداد تعفن نفوسها المريضة لا حرج عليها وهل على المريض أو المعتوه الذي مرّغ ميثاق الشرف الصحافي في وحل الابتذال والشتائم حرج؟!

ويبقى الحرج كل الحرج على المؤسسة الصحافية الغاطة في غفلتها تجاه بعض الأقلام المرفوع عنها القلم.. فالتّرسل الثقافي والأدبي يتطلب تطهير شطآن المؤسسة الثقافية من الطحالب التي تسيئ إليها والعالقة في جوانبها..

سألني بعض زملاء المهنة قائلاً: ألا ترى أن ظاهرة الشتم تأخذ دوائر وقاحتها في التجني على العلمانيين والليبراليين وقوى اليسار والتنوير والتقدم في أكثر من جريدة؟! قلت هذا دليل الإفلاس من أولئك الظلاميين ومرتزقة الإرهاب والتطرف الذين يحاولون أن يضعوا الغربال على قرص الشمس لتغطية نورها..

أجل: إن عجلة التقدم تأخذ مسارها الصحيح في اتجاه التاريخ رغم نعيق غربان الظلام!!

* * *

. . . والملاحظ أن هناك استقطاباً أصولياً سلفياً أخوانياً ظلامياً على الساحة الخليجية معادياً للثقافة الإنسانية ومهدداً لمرتكزاتها الإبداعية.. وإن تزامن هذا الاستقطاب التضامني المعادي للثقافة في الأنشطة النيابية والشوروية في الكويت والسعودية والبحرين.. يدلل على أن هناك منطلقاً قيادياً توجيهياً إسلاموياً فاشستياً استقام في تزامن موحّد في أنشطته على الساحة الخليجية مُستدعياً في مواقفه الظلامية المعادية للثقافة روح «غوبلز» الفاشستية الذي كان يتلمس زناد مسدسه كلما ذُكرت له الثقافة!!

وإذا أدركنا أن لحركة الإخوان المسلمين مركزاً عالمياً يوجه نشاط هذه الحركة الإخوانية المشبوهة سياسياً ويعتني بها لوجستياً ويُغدق عليها مالياً.. فإن تأثيرات معيّنة قد يلاحظها المتتبع لهذه التيارات الأصولية بشقيها السني والشيعي.. من واقع العلاقة التي أقيمت حديثاً بين المركز العالمي لقيادة الإخوان المسلمين في جنيف وولاية الفقيه في قُم.. وهو ما نرى امتداداته الظلامية وتداخلاته اللوجستية في النشاطات الأصولية بشقيها السني والشيعي: (تحالف الكتل

الشيعية والسنية ضد ربيع الثقافة في برلمان البحرين) هذا إلى جانب القواسم الظلامية المشتركة المعادية للثقافة وقواها التنويرية الفنية والأدبية..

إن هذا التزامن في الأنشطة الظلامية يتحدد في هذا الشهر الذي نعيشه من مارس.. فقد توجهت الحركة الدستورية الإسلامية في الكويت التي تشكل الغطاء السياسي لحركة الإخوان المسلمين بطلب طرح الثقة بوزير الصحة الشيخ أحمد العبد الله وقد توجهت قبل ذلك بطرحها ضد وزير الإعلام السنعوسي الذي قدّم استقالته تحت ضغوط إخوانية نيابية.. كما أن إخوانياً مخضرماً وعضواً في المكتب التنفيذي للإخوان المسلمين ونائباً لرئيس الوزراء ووزيراً للدولة هناك قد أشاع انفصاله «تكتيكياً» عن حركة الإخوان المسلمين.. هو ما يثير خطورة تسرب الإخوان المسلمين إلى أهم مركز في الدولة والإمساك بمفاصل أسرارها وحركة علاقاتها واتصالاتها.. وما يزيد الخطورة بلة حصول أحد رموز الإخوان المسلمين ورئيس تحرير مجلة (المجتمع) الدكتور محمد البصري على 52 صوتاً من أصل 65 صوتاً من الذين يمثلون مجموع أصوات الحكومة والمجلس واختياره نائباً لرئيس مجلس الأمة هو ما يعزز هذا الزحف الظلامي على مؤسسات الدولة وإفراغها من محتوياتها المدنية.. كما تشير الانتخابات البرلمانية في مملكة البحرين

إلى وصول القوى الأصولية والسلفية والإخوانية والمذهبية الطائفية إلى البرلمان وقد توحدت قوى الظلام السياسي الأصولي والسلفي والإخواني والمذهبي الطائفي في جبهة واحدة ضد ربيع الثقافة الذي جدد الحياة الإنسانية الجمالية الإبداعية في المجتمع وحرّك ضميرها في وعي الناس..

وقد توحدت قوى الظلام والتخلف البرلمانية في التصويت على تشكيل لجنة تحقيق لإدانة ربيع الثقافة في عروض الحراك الفني المرهفة في جمالية إبداعيتها الفنية للفنان الكبير مارسيل خليفة الذي صاغها غناءً وشعراً وأداءً راقصاً تنزف عذوبة في جلال موسيقاها في «مجنون ليلى» من شعر قاسم حداد!!

وقد تنسمت المساجد والحسينيات نشاز حملة ظالمة تناولتها الأصولية بشقيها ضد ربيع الثقافة.. وقال الشيخ عيسىٰ قاسم في خطبة صلاة الجمعة: «إن ربيع الثقافة دعوة صريحة للغواية باسم الحب على المسرح المكشوف في تحدٍ ساخر لدين هذا البلد وحرماته وقِيمه وأحكامه وطبيعته وذوقه وحيائه وطهره وعفافه» وهذا موقف افترائي لا أخلاقي ضد الثقافة تُجمعُ عليه مختلف القوى الظلامية الأصولية والسلفية والإخوانية والمذهبية الطائفية.. الأمر الذي وحدها في تحويل سلطة الشعب البرلمانية إلى محاكم تفتيش ضد الثقافة.. وكأن الأصولية والسلفية والإخوانية في مجلس

الشورى السعودي على موعد متزامن مع الأصولية السلفية والإخوانية والمذهبية الطائفية في البرلمان الكويتي والبحريني.. إذ ثارت ثائرتها ضد معرض الكتاب السعودي الذي فتح ذراعيه مرحباً بالثقافة على مصراعي دور نشرها وكتبها وكُتّابها وأدبائها وشُعرائها وفنانيها مما دفع قوى الأصولية والسلفية والإخوانية في مجلس الشورى السعودي في جلسته الواحدة والثمانين يوم الاثنين الماضي بمساءلة وزير الثقافة والإعلام الدكتور إياد مدني عن مواقفه الثقافية التنويرية بالنسبة إلى المرأة والانفتاح على الثقافة الإنسانية العالمية والتجديد الإعلامي في الخروج على السائد البليد والمتخلف وإعمال العقل في النهوض بالوطن!!

إن هذا الثالوث الفاشستي الأصولي الظلامي المتوحد والمتزامن في أنشطته الإرهابية ضد الثقافة في الكويت والبحرين والسعودية والمرتبط بتأثيرات وتوجيهات مركزية عالميته الإخوانية في جنيف وولاية الفقيه في قُم.. يجب عدم الاستهانة بخطورته على المجتمع المدني في تهديد الديمقراطية والحرية والتعددية وحقوق الإنسان من واقع حقيقة ثابتة: أن الثقافة هي ركيزة المجتمع المدني ومؤسساته التنويرية والحاضن لضمير الأمة في النهوض بالمجتمع.. وأن قضية الثقافة هي قضية موت أو حياة بالنسبة إلينا.. وأن على جميع القوى الخيرة المحلية والإقليمية أن تتضافر وتوحّد

جهودها في الوقوف ضد غاشية الظلام المعادية لربيع الثقافة الذي يحمل رياديته الإنسانية التنويرية الثقافية ليس في البحرين فحسب وإنما في منطقة الخليج برمتها.. ولهذا لم يكن من الصدفة أن تتضافر جميع قوى التخلّف وتُزامن أنشطتها المعادية على الساحة الخليجية.

* * *

تتحدد ثقافة المعروف والمنكر في الفقه الإسلامي الحديث.. ضمن ثقافة الصراط المستقيم.. من واقع أن الصراط المستقيم يأخذ بثقافة المعروف التنويرية.. وثقافة المنكر تأخذ بثقافة الظلام المغضوب عليها من اللَّه ومن الثقافة التنويرية..

ومعلوم أن الثقافة التنويرية بمفاهيمها الإنسانية تأخذ بمطلق معروفها الإبداعي الحداثي في حياة الأمم والشعوب..

إن صراط استقامة المعروف الثقافي التنويري يُشكل المواجهة التاريخية ضد ظلام ثقافة المنكر المعادي للثقافة التنويرية.. وتأتي إشكالية وحدة وتناقض صراع ثقافة المنكر والمعروف في نفس الإنسان (المثقف) التي ألهمها اللَّه الفجور والتقوىٰ في منكرها ومعروفها الثقافيين!!

إن شرعية المفاضلة تأتي في نسبية المنكر المعادي للثقافة التنويرية والمعروف الثقافي المحقق تنويرية وفق قِيمها المادية والمعنوية في تفضيل منكر ثقافي على معروف ثقافي في تباين منفعة وضرر نسبيتهما من واقع فقهي يرى: «بأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يحرّمان إذا تضمنا تفويت مصلحة أكبر أو جلب فتنة ومفسدة أعظم».

وأحسب أن الذين وقفوا ضد ربيع الثقافة هم في موقفهم هذا يقومون بجلب الفتنة والمفسدة للوطن سواء أرادوا أم لم يريدوا ذلك.. فليس المنكر الثقافي في مطلقه وليس المعروف الثقافي في مطلقه من واقع وجهات النظر الثقافية الفقهية في هذا الموضوع المرتبط نسبياً بحركة الزمان والمكان.. وضمن حركة التاريخ التي تتشكل في تفسيراتها المادية والفكرية لوجهات نظر ثقافية متعددة..

إن الكثير من العادات والتقاليد والأخلاق والعلاقات الاجتماعية والثقافية التي كانت في عرف المنكر الثقافي أصبحت ضمن حركة التاريخ في عرف المعروف الثقافي.. فالمعروف والمنكر يخضعان في نسبيتهما لخصائص ثقافة شرعية ترتبط في مقاصدها لخير الناس ولمصالح الناس التي هي بالضرورة اجتماعية وفكرية وسياسية وثقافية من واقع أن الدين وشرع اللّه على الأرض وبين الناس في خدمة المجتمع والثقافة بالدرجة الأولى.. فكل عمل ثقافي خيّر على الأرض

للإنسان يشكل رافعة معروف ثقافية إلى السماء في ضمير اللّه أن المعروف الثقافي والمعروف بشكل عام يجب أن يخرج من الضمير والعقل والذاكرة والوجدان والعقيدة ويستوي على الأرض نفعاً مادياً ومعنوياً للإنسان وإلا ارتكس في المنكر وتلاشىٰ لغواً ثقافياً فقهياً في اللاشيء.. وقد تكون ثقافة المعروف منكراً إذا أسيئ استعمالها الديني والفقهي واستخدامها لأغراضٍ سياسية ومنفعة فردية أو مذهبية أو فئوية أو طائفية ـ كما تمّ استخدامها ضد ربيع الثقافة ـ والقيام باستبطان ثقافة المنكر بالمعروف وثقافة المعروف بالمنكر.. وإذا كان القرآن الكريم الذي تتأسس عليه مسألة المنكر والمعروف بشكل عام وهو حمّال أوجه يمكن استغلاله في تفسيرات ثقافية نفعية وسياسية.. فكيف بمسألتي ثقافة الأمر بالمعروف وثقافة النهي عن المنكر.. التي تستميت قوى اجتماعية وسياسية معروفة بأصوليتها وتخلفها في العمل على تشريع إدانتها عبر البرلمان في المجتمع بهدف تسييس ثقافة معروفها بثقافة منكرها لأغراض سلفية وإخوانية حزبية ومذهبيّة طائفية!!

إن استقامة القصد الثقافي ترتبط باستقامة العمل الثقافي وإن استقامة مقاصد ثقافة المعروف لا تستقيم على صراطها المستقيم إلا بتحديث منطلق القصد في تحديث استقامة التوجه الثقافي ولا يمكن الدّفع بمعروف ومنكر الأمس

الثقافيين اللذين أكل وشرب عليهما الدهر والارتفاع بهما إلى ثقافة معروف ومنكر ما استجد عبر تاريخ اليوم.. ولا يمكن حجر ثقافة المعروف والمنكر في نصوصهما الجامدة.. فليس هناك نصوص ثقافية في الدنيا جامدة فالنصوص في مفاهيمها ومعانيها الثقافية الإبداعية في حركة دؤوبة ضمن حركة التاريخ.

إن ما اتفق عليه شرعاً بأن ثقافة المعروف تتشكل لجلب المصالح الثقافية للعباد.. وإن ثقافة المنكر ما اتفق عليه شرعاً في درء المفاسد الثقافية إلا أنه في حالات يمكن أن تجتمع مصالح ومفاسد الشعوب الثقافية ضمن مصلحة ثقافة واحدة وفي هذه الحالة يمكن تجاوز قاعدة «المصالح والمفاسد» الشرعية اقتضاء للمصلحة الثقافية العامة.. وفي حالة افتراق النص الشرعي عن مصلحة الناس يؤخذ بمصلحة الناس دون الشرع. من واقع مضمون شرع الله في مصلحة الناس وليس النص الشرعي في جُمود حدِّ ذاته اللغوية الشكلية والنصوص الشرعية الثقافية وغير الثقافية لها مضامين ومفاهيم قدسية متحركة تبعاً لمصلحة الناس.. وفي هذا الخصوص تفقد أيضاً مفاهيم المعروف والنهي عن المنكر قيمتها الشرعية والإنسانية الثقافيتين إذا جانبت مصلحة الناس وتمسكت بجمود نصوصها وتشددها الثقافي ضد جديد ثقافة الحداثة والتحديث ومتطلبات العصر في التنمية الثقافية

والاقتصادية والسياسية والاجتماعية.. وتأتي التنمية الاقتصادية والتنمية السياسية التي تعني التنمية الديمقراطية الثقافية بالضرورة بتنمية الإنسان الثقافية في مجتمع متطور مزدهر متنامي الاتجاهات الثقافية وهو ما يأتي ضمن تحديث الإنسان في العيش والمسكن والملبس والعلم والطب والسياحة والثقافة والفن والإبداع والرياضة والمسرح والرقص والغناء وخلاف ذلك من متطلبات الحياة الحديثة.. أما استخدام مسألتي المعروف والنهي عن المنكر كأدوات إرهابية وفكرية وثقافية وقمعية وكبت أنفاس الناس وتسويغ الإرهاب ضدهم والحد من حرياتهم ورغباتهم وطموحاتهم الشخصية والفكرية والثقافية فيما يجوز وما لا يجوز وفيما هو حرام وما هو حلال.. كما هو حال بعض البلدان التي تتشكل فيها أجهزة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في قمع الكتاب والمبدعين واليساريين والشيوعيين وروّاد الحداثة والعلمانيين واتهامهم بالخروج عن سكة الاستقامة المرتبطة بالقاعدة الشرعية قاعدة «المصالح والمفاسد» كما قامت بذلك ثلة من النواب البحرانيين في المجلس النيابي لمحاكمة ربيع الثقافة باسم الإسلام وشرع اللّه وهذا افتئات على الإسلام وشرع اللّه ولا يجوز السكوت عليه.. أذكرُ قبل سنوات كنت وجهاً لوجه مع رجل أمن يحقق معي في بعض كتاباتي الثقافية.. ويطلب مني الكف نهائياً عن الكتابة بناءً على أوامر عليا..

والتوقيع على إقرار بهذا الخصوص.. قلت ولكن «يا أبا عبد الله» ـ وطيور المباحث أو غربانها لا يعطون أسماءهم الحقيقية ويكتفون بأسماء مستعارة أو بألقاب مزيفة ـ الكتابة مصدر رزقي وليس لدي مصدر رزق آخر.. وقطع رزق المسلم كقطع صلاته في توجهه إلى اللّه. كما أن قطع الأرزاق ـ كما يُقال ـ مثل قطع الرقاب وكنت أسأله أين الخطل فيما أكتب دلني عليه.. وكان يرد أنت لا تكتب ضمن الاستقامة الثقافية ولكن «يا أبا عبد اللّه» ما هي الاستقامة الثقافية دلني عليها.. وأنا أدري أن الثقافة تنويريّة في جوهرها وخلاف ذلك هراء.. وكان يدفع ورقة إقرار التعهد للبصم عليه.. وهو يقول من مثلك يعرف أن يكون مستقيماً فيما يكتب.. وعندما تنفست الصُعداء في يوم قائظ.. كنت بين خيارين لا ثالث لهما: خيار لعنة السجن أو خيار لعنة التوقيع والكف عن الكتابة.. وقد اخترت منكر الثانية على منكر الأولى فالمفاضلة بين منكر أشد ومنكر أخف.. يدخل ضمن القاعدة الشرعية كما قال شيخ الإسلام ابن تيميّة:

«وإذا كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أعظم الواجبات المستحبات فالواجبات والمستحبات لا بدَّ أن تكون المصلحة فيها راجحة على المفسدة».

وأحسب أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر له

تجليات مرنة متسامحة وغير متشددة ضمن ما هو متفق عليه في مسألة الضرورات التي تُبيح المحظورات. . وكانت ضرورة التنمية الثقافية والاقتصادية في الحرية والديمقراطية والإبداع الثقافي والمسرحي والفني يمكن أن تبيح محظورات ما يُعيق صعود الإنسان والوطن صعوداً ثقافياً وإنسانياً حتى عين الشمس.

* * *

تَساكِنُ أصولية ثقافة فقه الماضي أصولية فقه الحاضر.. واغتراب أصولية فقه الحاضر عن أصولية فقه الماضي أَسّسَ بؤس تأخر وتخلف مجتمعاتنا العربية وأوصد أبواب التنمية فيها.. ويلعب الإسلام السياسي الثقافي دوراً في تفخيخ ثقافة الحب والتجاسد الإنسانيين بألغام ثقافة الحقد والتكاره بين الناس..

ولم تكن ظاهرة التساكن الثقافي الأصولي حديثة العهد بقدر ما هي ضاربة في جذور أعماق تاريخنا الإسلامي.. وقد شهدت لنا عصورٌ انقرضت هذا التطاحن الأصولي الفكري والثقافي بين ثقافة الحب التنويرية وثقافة الكراهية الظلامية!!

ومنذ ما يقارب 900 عام كان الشيخ الأكبر ـ كما لقّبه عصره ـ محيي الدين ابن عربي المتصوف الفذ يعتقد بوحدة الوجود في صفاء عقلانية ثقافية مادية نظرته إلى الحياة من زاوية مادية أحاديتها الوجودية.. التي أصبحت حقيقة جليّة يؤخذ بها في المجالات البحثية والعلمية والأكاديمية.. مما أثار قائمة الأصولية الظلامية ولم يقعدها حتى يومنا هذا!!

وإن من أشهر مؤلفات محيي الدين ابن عربي الذي وُلِد في مدينة مرسية في الأندلس عام 1165 وتوفي عام 2027 في دمشق مؤلفه المثير للجدل (الفتوحات المكية) ويشن الإسلام السياسي الإخواني حملة تكفيرية إقصائية ضد الشيخ الأكبر محيي الدين ابن عربي حتى إنهم دفعوا الرئيس المصري أنور السادات للإيعاز إلى البرلمان المصري باستصدار قانون يمنع بموجبه تداول كتاب (الفتوحات المكية) لمؤلفه محيي الدين ابن عربي!!

ومعلوم أن شعوبنا العربية في كل مراحل النهوض والتحرر من ثقافة أصولية الظلام.. والانطلاق نحو غد ثقافة الاستنارة والتنوير يتصدىٰ لنا الإسلام السياسي الأصولي السلفي والإخواني والمذهبي الطائفي لإحباط وتشويه مشاريعنا الثقافية التنويرية وكانت الحملة التشويهية الظالمة ضد ربيع الثقافة التي دفعت بها جماعة الإخوان المسلمين ووحدت حولها جميع القوى الظلامية الأصولية بشقيها السني والشيعي خير دليل على استهداف الإسلام السياسي الإخواني في قتل روح الحب الإنساني الذي تجلىٰ بأجمل صوره في الأعمال الفنية والإبداعية التي زفها لنا ربيع الثقافة وقد تجلت الأبعاد الإنسانية الثقافية في أرق وأعذب وأجمل صورها الإبداعية في دنف عذابات المحبين الذين يجددون عناق أزلية عشقهم في صفاء إلمامة روحانية ملوّنة بضياء القمر!!

إن الحب هو حقيقة الله في الإنسان والذين توجهوا رافعين عقيرتهم البرلمانية الأصولية ليحاكموا ربيع الثقافة هم يقتلون حقيقة الله في الإنسان ولا يقيمون وزناً للثقافة الإنسانية التي تُجسد محبة الله في الإنسان:

بالسِّر إن باحوا تُباح دماؤهم
وكذا دماء العاشقين تباحُ

ربيع الثقافة الذي ينزف إيقاعاً جسدياً ميلودياً عذباً ولحناً موسيقياً جللاً وشعراً نورانياً وأداءً إبداعياً دنفاً تناول برفق رمز عناق لمي التوجد الروحي التراثي بين قيس وليلىٰ وفجّر جنون العشق فيضاً إنسانياً أزلياً في مملكة البحرين الحالمة عشقاً والمتهادية ثقافة تنويرية على مياه الخليج الدافئة.. هو ما أثار غاشية الظلام الإخوانية ومن لفّ لفها من خفافيش ثقافة الكراهية والظلام!!!

إن «الأخونجية» عندنا.. شأنهم شأن الأخونجية في كل مكان لا يكفّون عن رجم الثقافة التنويرية ماضياً وحاضراً.. وكما شوّهوا الوجه الإسلامي التنويري لمحيي الدين ابن عربي وطالبوا بمنع تداول مؤلفاته لأنه قام بتجسيد الإسلام مفهوماً إنسانياً طيباً رفيقاً عطراً متسامحاً وتعاليم هدي تتجدد في الأديان طراً على وجه الأرض:

لقد صار قلبي قابلاً كل صورة
فمرعىً لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائف
وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنىٰ توجهت
ركائبه فالحب ديني وإيماني

هذه هي ثقافة محيي الدين ابن عربي الذي جعل منه «الأخونجية» عدواً لدوداً لهم.. والذي ما انفكت مؤلفاته تبتهل بمحبة الناس في الإسلام وفي اللّه وفي الإنسانية وفي جميع الأديان على وجه الأرض طراً..

وأحسب أن الأخونجية في كراهيتهم وحقدهم وعدائهم لربيع الثقافة يستعيدون حقدهم وكراهيتهم وعداءهم للشيخ الأكبر محيي الدين ابن عربي.. الذي ما انفكّت روحه تغزل المحبّة وتبدد ظلام الكراهية بين الأديان.

إن الإسلام السياسي الإخواني الذي عُجن بلغة الدم والإرهاب والقتل والاغتيالات السياسية لا يمكن بأي شكل من الأشكال أن يتلمس الروح الإنسانية وجمالية الحياة التي تفجّرت في الأنشطة الإبداعية الفنية في ربيع الثقافة وأصبحت ألحان إيقاع تأخذ بالإنسانية البحرانية على طريق مسار المشروع الإصلاحي الوطني في الحرية والديمقراطية والتعددية

وحقوق الإنسان.. ولقد فجّر الإيقاع الثقافي شعراً وأداءً وغناء ورقصاً وموسيقى يشف عن جمال ربيع الثقافة في جمالية واعدة لمشروع الإصلاح الوطني الذي سالت ينابيعه الثرة من بين كفوف الإنسانية البحرانية المعطاء.

* * *

هناك قواسم مشتركة في مكوّنات المجتمع.. وهي قواسم تنعكس في اتصال وتواصل الناس ثقافياً في الحياة... وكل مكوّن ثقافي يتأثر ويؤثر في الآخر أكان سلباً أو إيجاباً.. فالسلبي يؤثر بوقع أشد نزولاً وصعوداً من القمة حتى سفح المجتمع.. خلاف وقع الإيجابي الذي هباب أن يُلمس أو يسمع دبيبه!!

والثقافة تطواف مؤثر لجميع مكوّنات الحياة.. ليس على صعيد الداخل وإنما على صعيد الخارج أيضاً.. وتلعب الثقافة دوراً خطيراً في التأثير في مكوّنات المجتمع وتنميط توجهاته التنويرية والأخذ به إلى توهج الحياة الإنسانية..

ويندرج الأدب بالتحديد في خطورة هذا الدور في تعريف وتقريب القواسم المشتركة في المجتمع وتسليط الأضواء عليها واستجلاء قيمها الجمالية.. صحيح أن القِيم الجمالية تختلف وتتباين من عصر إلى عصر.. ومن مكوّن اجتماعي إلى آخر.. إلا أن دور الأدب والفن عليه أن يتجاوز مكونات هذه القواسم الطائفية والعرقية والقبلية المشتركة في المجتمع وأن ينبري ليكون وسيلة وصل وتوحّد وتقارب وتعارف روحي

بين الأديان والمذاهب والطوائف والأعراق.. بحيث تتوحد المشاعر والهموم المشتركة في المعاناة الإنسانية.. ويجسد الآخر همومه ومعاناته نفسها في الآخر وطنياً لا طائفياً!

هذا ما يدعونا أن نتأمل الحراك الأدبي والفني في المجتمع ودوره في وضع نقاط الحروف الإيجابية على نقاط الحروف السلبية.. والأدب معني بالدرجة الأولى باقتحام أكثر القضايا تعقيداً وأشدها حرارة والتهاباً.. وإزالة الأدران الطائفية والعرقية والقبلية من جذورها والعمل على جليها بروح الإنسانية والوطنية.. وفقاً لمهنة الأدب والفن في الإمتاع والإبداع والابتكار وتسخير القِيم الجمالية لتفكيك العقد الاجتماعية التي تكوّنت تاريخياً وأصبحت من القواسم المشتركة في المجتمع والمؤثرة طائفياً وعرقِياً وقبلياً في حياة الناس!!

إن الحراك الثقافي والأدبي والفني هو الأكثر جدارة وأهمية في التغلب على أصعب العقد الاجتماعية والفكرية التي ينوء بها المجتمع فهل ارتفعنا بالثقافة والفن والأدب على الوجه الصحيح الذي يمكن أن يلعبه في ميدان نزع الشروش الطائفية من وجدانية المجتمع وتطهير نفوس وعقول شرائح واسعة من أبناء وبنات هذا الوطن؟!

وإذا تأملنا مسائل ملتهبة مثل التجنيس والتمييز ودفن البحر وخلاف ذلك وتتبعنا جذور دوافعها الاجتماعية

والسياسية فإننا لا يمكن أن نعفيها من الشروش الطائفية الدفينة في صميمها التي تعمل على تسعيرها ليس عبر الصبية المراهقين الذين يثيرون الحرائق والتخريب في الشوارع والطرقات فحسب، وإنما عبر بعض الصحف والأقلام التي تبدي ابتهاجاً بالرّغم من شجبها وإدانتها لمثل هذه الأعمال الإرهابية والتخريبية!!

وإذا كان الأدب والفن رأس حربة ماضية نجلاء ضد الطائفية.. فإنه لا يمكن لأحد أن يعفي الأدب والفن من هذا القصور المزري وترك حبل الطائفية على غارب المواقف العشوائية والمجانية تجاه المخاطر الطائفية التي تُحدق بالوطن!! بالرغم من أن الوطن يغصُّ بالأدباء والكُتّاب والمثقفين والفنانين والمسرحيين والمفكرين.. وفي الوقت الذي ينبري أبرزهم أو الكثير منهم في الصحف العربية والمحلية لتناول قضايا هامشية وبعيدة كل البعد عن قضايا الإرهاب والطائفية التي تستهدف الوطن.. وعلى الرغم من أن بعضهم يتسلم مكافأة تفرّغ ثقافي وأدبي.

حقاً إن الأدب كان مسؤولاً وسيبقىٰ مسؤولاً.. وإن مسؤولية الأدب تقع بالدرجة الأولى على عواتق مثقفي وأدباء وكتاب وفناني الوطن.. في أن يوجهوا سهام إنتاجاتهم الأدبية والفنية والإبداعية إلى قلب الظلام والطائفية.. لا أن

يتسكعوا على هوامش أعقد المسائل وأكثرها خطورة على سلامة وحرية ووحدة الوطن!!

إن نهوضاً ثقافياً وأدبياً وفنياً معني بأن يأخذ دوره الوطني والإبداعي في اقتحام الطائفية في عقر دارها.. ونزع فتيل مخاطرها من قلب الوطن.. وليتلمس كل أديب وكاتب ومثقف وفنان نص ضميره.. ويعمل على إيقاظه من ظلام الإرهاب والطائفية!!

وقد نجد عذراً لبعض الكُتّاب والأدباء والفنانين الذين تطيّفت أرواحهم وعقولهم ونفوسهم وأقلامهم بالطائفية.. أما أولئك الذين يأكلون من أكتاف الثقافة مكافآت ورواتب مجزية وبقاماتهم الأدبية والفكرية.. فأي عذر يمكن أن نجده لصمتهم المطبق تجاه فحيح أفاعي الظلام والطائفية؟!

* * *

المسألة لا ترتبط بالمسؤولية الأدبية والعلمية فقط وإنما بالذِّمة النقدية الثقافية تجاه شرف التحكيم ونقاء وموضوعية الضمير الثقافي في القول الفصل تجاه أي إنجاز ثقافي وفكري!!

إن الفضيحة التي ما زال دويها يأخذ مجالات تشظياتها النقدية في الميادين الثقافية والفكرية تُشير إلى أن الإنتاج الثقافي والأدبي والفكري ليس على مستوىً من النقاء والمسؤولية وإنما بعض القيمين على هذا الإنتاج الثقافي والأدبي والفكري هم ليسوا على مستوىً من النقاء والمسؤولية... ولا يمكن تبرير هذا الكم من السطو على حقوق الملكية الفكرية ومرورها مرور الكرام على هيئة التحكيم لجائزة الشيخ زايد للكتاب دون أن يلفت أحد من هيئة التحكيم الانتباه إلى السطو الشنيع في كتاب الدكتور الجزائري حفناوي بعلي [مدخل في نظرية النقد الثقافي المقارن] الذي منح جائزة الشيخ زايد للكتاب الصادر عن الدار العربية للعلوم عام 2007 والذي اشتمل على 743 فقرة منها 297 فقرة مسروقة من عدة كتب بما فيها كتاب الدكتور

عبد الله الغذامي [النقد الثقافي] المستشار في لجنة التحكيم الذي قال إنه تصفح كتاب حفناوي ولم يقرأه وكان عذراً منقوصاً وتبريراً لا يرقىٰ إلى مسؤولية الأمانة المهنية!!

إن فضيحة سرقة حقوق الملكية الفكرية التي مرّت على هيئة التحكيم مرور الكرام دون أن يكتشفها أحد وكان الدكتور عبد اللّه الغذامي ـ كما يُقال ـ عاملاً حاسماً في إعطاء جائزة الشيخ زايد للكتاب إلى الكاتب الجزائري حفناوي مترنحاً في جُمل الثناء ومعسول التملق والمديح باعتبار الغذامي رائد النقد الثقافي في المنطقة العربية (كذا) وهو ما أشاد به الحفناوي في صدر كتابه [مدخل في نظرية النقد الثقافي المقارن] الذي حاز جائزة الشيخ زايد للكتاب.. وفي ذلك ما ينطبق على المثل البدوي [إمدحه وخذ عباءته].

وقد تناولت سرقات الحفناوي عدة كتب بما فيها كتاب الغذامي (النقد الثقافي) وكتاب فخري صالح (دفاعاً عن إدوارد سعيد) وكتاب عز الدين المناصرة (النقد الثقافي المقارن) وكتاب الدكتور سعد البازعي (دليل الناقد الأدبي) ويذكر أن الدكتور عبد اللّه الغذامي له دور ناجز في إرساء جائزة الشيخ زايد للكتاب على كتاب الحفناوي الذي ينوء بالسطو على حقوق الملكيات الفكرية لعدد من الكُتّاب.. حتى إن الدكتور عبد اللّه الغذامي قدّم استقالته من هيئة جائزة

الشيخ زايد للكتاب.. وصرّح لجريدة الشرق الأوسط قائلاً: [إنني قررت منذ البداية أن أكون بعيداً عن المداولات الرسمية في مؤسسة الجائزة وكذلك المداولات الصحافية حول هذا الموضوع لأنني أولاً صدمت صدمة عنيفة مما جرىٰ لي ثم إنني لا يصح لي أن أكون مدعياً وقاضياً في آن واحد] وأضاف الغذامي: [وهذا ما طلبته من الأخوة في أمانة جائزة الشيخ زايد للكتاب] وقال: [إن الذي حدث أن الجائزة شكّلت عدداً من اللجان العلمية والقانونية بعيداً عن مشاركتي حسب طلبي وصار قرارهم أن سحبوا الجائزة] ويؤكد الغذامي قائلاً: [إن الخطأ هنا أتى من لجنة التحكيم ومني شخصياً].

وإنه لمن المحزن أن يأخذ الفساد المالي والإداري والأخلاقي القابع في أكناف الدول العربية.. انسحابه أيضاً إلى مؤسساتنا الثقافية.. وعزاؤنا أنه إذا كان للفساد المالي والإداري والأخلاقي هناك من يكشفه ـ أحياناً ـ بيننا ويسلّط الأضواء على جرائمه.. فإن الفساد الثقافي هناك أيضاً من يُسلط الأضواء عليه ويفضح جرائمه.. وقد كان الكاتب المصري عبد اللّه السمطي المقيم في السعودية هو أول من فضح هذا الفساد الثقافي في السطو على الملكية الفكرية في كتاب الدكتور الجزائري حفناوي بعلي [مدخل في نظرية النقد الثقافي المقارن].

وأحسب أنه من الضروري بمكان أن تقدم أمانة التحكيم لجائزة الشيخ زايد للكتاب نقداً ثقافياً ذاتياً علنياً والعمل على استقصاء الظروف الذاتية والموضوعية التي أدّت إلى هذه الفضيحة الثقافية النكراء... ولا يكفي أن يقدم الدكتور عبد اللَّه الغذامي استقالته ويلوذ بنفسه دون أن يقوم بنقد ذاتي وموضوعي قد يثري المؤسسات الثقافية ويزيح عن كاهلها آثام وأوزار الفساد الثقافي والأدبي!!

* * *

الفتيا كثقافة في ذهن المجتمع صفة دينية ثقافية مقدسة.. وفي الواقع لا المُفتي ولا فتواه يحملان صفات التقديس الديني..

فالفتاوىٰ لها اجتهادات تأويلية بشرية... وهي قابلة للصواب والخطأ.. ولها طابع بشري غرضي... وإنه من الحماقة بمكان إعطاؤها صفات دينية مقدسة.. أو إضفاء عباءة القداسة على المثقفين ذوي الاختصاصات الفقهية في الوعظ والإفتاء.. الذين يتنابتون كالفطر في المجتمع.. ويتطايشون بفتاويهم على شاشات الفضائيات في التحريم والتكفير وفي التدخل في أدق الشؤون الشخصية الثقافية لهذا المواطن أو تلك المواطنة..

وعلى مداخل ومخارج بوابة (التقديس) في التطهير والتبريك يتهافت رجال الدين في أخذ مواقعهم الدينية في معارف الإرشاد والتفقيه والتوجيه إلى أن تكوّنت ثقافة التقديس الروحية في المجتمع واستوطنت قداسة الرب رجل الدين وتماهت قداسته وطهارته وبركته في حشد من رجال الدين يتزاحمون على شاشات الفضائيات بعمائمهم

و«أشمغتهم» وانسدال شعورهم على صدورهم.. والكل منهم يُظهر مهارته الدينية: أنه الأنجب والأطهر والأبرك والأنزه معرفة في شؤون الدين والدنيا.. أليسوا هم وحدهم حملة راية الرب طُهراً وبركة ونزاهة؟!

وفي اللغة: قدّسه اللَّه تعالى طهره وباركه.. وقدّس الرجل اللَّه نزهه ووصفه بكونه قدوساً.. وتقدّس تطهّر.. والقُدُّوس من أسماء اللَّه.. وروح القدس عند المسلمين هو الملك جبرايل فبأي حق أخذ هؤلاء المتأسلمون صفات اللَّه في الطهر والتبريك واعتدوا على كرامة ونزاهة طُهرها ونسبوها إليهم وراحوا يتباهون بها على شاشات الفضائيات فيما يجوز وما لا يجوز في أدق وأرقِّ الخصوصيات الشخصية لدى الرجل والمرأة.. ويحتسبون بقدسية اللَّه زوراً وبهتاناً في أكثر خصوصيات الحرية لدى الإنسان!!

ولنا خير أمثلة لدى أمم وشعوب سبقتنا: بأنه لا طريق أمام دولة القانون المدني في الحرية والديمقراطية والتعددية ومساواة المرأة وتكريس حقوق الإنسان.. إلا طريق طرد الإسلام السياسي ـ شرّ طردة ـ من واقع حياة الناس في المجتمع وإنزال القوانين المدنية الإنسانية الصارمة ضد التوجهات الأصولية والسلفية وتحديد أنشطتها الدينية في المساجد ودور العبادة وقطع دابر أنشطتها السياسية في المجتمع..

إن الإسلام السياسي يتلوّن كالحرباء وكلما سدّ باب تطرف وإرهاب أمامه.. ولج علينا بطرقٍ ملتوية من باب سد الذرائع: الطريق لدى الإسلام السياسي في العبور منه إلى أغراضه ومنافعه الإسلاموية.. ولا يمكن سد ثقافة باب ذرائع الإسلام السياسي في الإرهاب والتطرُّف.. إلا بعد إغلاق هذا الباب: باب ثقافة سد الذرائع أمام حرية الإنسان الشخصية فيما يعبد وفيما يأكل وفيما يشرب وفيما يلبس.

إن ثقافة باب سد الذرائع في مفهوم الإسلام السياسي تعني سد باب الحرية بالضبة والمفتاح في وجه حق حرية الإنسان الشخصية المَعبْر إلى جميع الحريات في المجتمع..

إن ثقافة باب سد الذرائع الأكثر تطرفاً ضد الآية الكريمة والأكثر بعداً إنسانياً عن حقوق المرأة وحقوق الإنسان بشكل عام: «قُل يا أيها الكافرون.. لا أعبد ما تعبدون.. ولا أنا عابدٌ ما عبدتم.. ولا أنتم عابدون ما أعبد.. لكم دينكم ولي دين» فأي باب لسد الذرائع أمام هذه الآية الطاهرة الكريمة المباركة بقداسة رسالتها المرتبطة باللّٰه.. وليس برهط المتاجرين بقداسته والمتلصصين عبرها في زج أنوفهم في شؤون البشر الشخصية.. وتراهم يتذرعون بوسطية سد الذرائع ولكن ليس في الإسلام السياسي وسطية فالسياسة تنفي الوسطية بالضرورة..

إن أطول لحية وسطية في الإسلام السياسي أو خارجه:

تضع ألف شرط وشرط تجاه الاختلاط وتدفعه إلى باب سد الذرائع.

ويضع الشيخ عبد اللطيف بن عبد العزيز آل الشيخ في جريدة الشرق الأوسط اللندنية والمحسوب على الوسطية شروطه ضمن ثقافة مقاصد الشرع في التدخل الفظ في الشأن الخاص للمرأة محدداً ذلك في أحد عشر شرطاً..

أولاً: الالتزام بعدم التبرج وكشف المرأة ما لا يجوز لها كشفه.. ثانياً: الالتزام بغض البصر عما يجوز النظر إليه من الجنسين. ثالثاً: الالتزام بعدم تكسر المرأة في كلامها والخضوع فيه.. رابعاً: الالتزام بالسكينة في المشي وعدم إظهار الزينة.. خامساً: الالتزام بالابتعاد عن مواطن الريبة أو ما يدفع الرجل إلى التجرؤ عليها واستغلالها.. سادساً: إن التزام المرأة بعدم التعطر واستعمال الزينة وأدواتها وما يثير شهوة الرجل لقوله صلّى اللّه عليه وسلّم: «إذا استعطرت المرأة فمرت بالمجلس فهي كذا وكذا يعني زانية». سابعاً: أن يخلو من تلاصق الأجساد عبر الاجتماع.. ثامناً: أن يكون الاختلاط في حدود ما تفرضه الحاجة دون إسراف أو توسع أو تعطيل عن واجبها الأساسي في رعاية البيت وتربية الأبناء.. تاسعاً: أن يخلو من إزالة الحواجز بين الجنسين حتى يتجاوز الأمر حدود الأدب والسمت وينافي العفة والحياء وعدم الإطالة وما يوصل إلى حد الامتزاج.. عاشراً:

أن لا يكون الاختلاط متعمداً ومقصوداً لذاته وإنما تفرضه الحاجة والضرورة.. أحد عشر: سن عقوبات من قِبل ولي الأمر على كل من يتجاوز الأدب والسمت..

إن باب سد الذرائع حجة إسلاموية للتدخل في الشؤون الخاصة للمرأة أو الرجل على السواء.. ووسيلة فظة للاعتداء على كرامة الإنسان بالتدخل بشؤونه الخاصة.. وإذا كانت الحرية مناطة من عند اللَّه وفق القول الكريم: ﴿لكم دينكم ولي ديني﴾ فإن الخصوصيات الشخصية للإنسان تأخذ أبعاداً تتجاوز بالضرورة باب ثقافة سد الذرائع.. إن الإسلام السياسي بمختلف مذاهبه وطوائفه يلتقي على قاعدة واحدة في رفع راية الجهاد الإسلامي في الدين والشرع ضد مظاهر الحداثة والتحديث التي تتطلبها مجتمعاتنا العربية وكان ما أبداه رئيس المجلس العلمائي الشيخ علي رحمة في احتجاج متهافت ضد الأنشطة الرائدة التي تضطلع بها وزارة الثقافة والإعلام بالعمل في العناية بالطفل البحراني ورعايته الثقافية والترفيهية وتشذيب روحه الغضة بإيقاعات الموسيقىٰ والأنشطة الفنيّة.. واكتشاف مهاراته ومواهبه الإنسانية.. وكان في ذلك خطوة رائدة مسؤولة من لدن وزارة الثقافة والإعلام في سحب البساط من تحت أقدام أنشطة الإسلام السياسي وخصوصاً في عطل الصيف في تفعيل أنشطتهم بين الأطفال والشباب وأخذهم في رحلات وندوات تثقيفية دينية وأنشطة رياضية

وتحضيرهم مستقبلاً على طريق التطرف والإرهاب وهو ما أثار حفيظة رئيس المجلس العلمائي في وصف أنشطة وزيرة الثقافة والإعلام السيدة مي الخليفة بنشر الفساد في أوساط المجتمع ودفع الأطفال إلى العادات السيئة وتربيتهم على التحلل والرقص بحسب تعبيره.. وقد أدان ذلك شرعاً قائلاً: «لا بدَّ من استهداف الأطفال عبر برامج نوعية وتثقيف على جميع المستويات بصورة نظيفة ومقبولة شرعاً لا أن تتخذ من الرقص والأغاني والموسيقىٰ سبيلاً للترفيه» وقال: «إن ديننا الإسلامي يدعو إلى الفضيلة والتحلي بمكارم الأخلاق ويرفض التشجيع على إشاعة أجواء الملاهي والرذيلة التي منشأها الأغاني والرقص والأفعال الخادشة للحياء».

وهذا اتهام باطل وافتراء وقذفٌ باسم الدين.. وهو أمر خطير يُعرِّض صاحبه إلى المساءلة: مساءلة دنيا القانون... ومساءلة الآخرة...

* * *

كل المجتمعات العربية تقريباً تعيش ثقافة احتقان كراهية نصفها.. في تكريس كراهية نصفي الشعب من الرجال والنساء خلال تقاليد وأعراف وطقوس ثقافية ومذاهب وأديان انتقلت مفاهيمها الروحية من دين إلى دين في رسالات الأديان على وجه الأرض طراً!!

وقد كرّس هذا الانقسام بمرور الأزمنة والعصور ثقافة حمم البغضاء والكراهية بين الرجل والمرأة.. وهو ما شكل جوهر ثقافة الاستبداد في المجتمع الذي أدىٰ إلى هذا التخلُّف المضطرب في صميم المجتمع إذ لا يمكن لمجتمع يلعن نصفه الآخر أن يُنتظر منه أن ينهض.. ويأخذ طريقه الصحيح في الحياة نحو ثقافة الحداثة والتحديث!!

إن الشعوب العربية تجابه ثقافة عبودية تحرير المرأة من الرجال في ممارسات تقاليد وأعراف وعادات ومذاهب وطقوس دينية وفقهية وشرعية تكرس استرقاق المرأة وتوثق عبوديتها في المجتمع..

وتتبوّأ الطامة الكبرىٰ واقعها في ذات النصف المهان المضطهد والمستعبد في المجتمع: إذ نرىٰ جموعاً غفيرة من

النساء يتضامن لتكريس المجتمع الذكوري في واقع اضطهادهن واستعبادهن ويقفن ضد تحديث المجتمع وتحرير نصفه وتقويمه بمفاهيم الحداثة والتحديث.. مُستمرئات عبوديتهن واضطهادهن في تبرير ذلك بتقاليد وعادات وأعراف وطقوس دينية تجاوزها الزمن وفقدت صلاحيتها الثقافية أمام ضروريات النهوض بالمجتمع وتحريره من مخازي وعادات وتقاليد ثقافة القرون الوسطىٰ.

ويأخذ الإسلام السياسي الظلامي على عاتقه التصدي للتوجهات الثقافية التنويرية التي ظهرت في الآونة الأخيرة على ضرورة العمل على تفعيل نصف المجتمع من النساء في عملية التنمية الوطنية والارتقاء بهن إلى واقع الحرية والكرامة الإنسانية ومساواتهن في الحقوق والواجبات وفي بناء الوطن ورفع شأنه وتحريره من آثام وأوزار العنف والإذلال والاضطهاد ضد المرأة!!

وعلى خلفية الندوة التي أقامها (مركز السيدة خديجة بنت خويلد) في مدينة جدة تحت عنوان [واقعية مشاركة المرأة في التنمية الوطنية لعام 2010] ضمن توجهات عقلانية حددت جوهر الحقيقة: بأن التنمية الوطنية لا يمكن أن تأخذ طريقها المُجدي والصحيح والنافع إلا بمشاركة النصف الآخر من المجتمع.. وأن من واقع الموضوعية العلمية: أن المجتمع يُشاد كله بتضافر الرجال والنساء بالتساوي وليس بنصفه من

الرجال وتهميش النصف الآخر من النساء.. وأنه من واقع العلم والموضوعية أن التنمية في الإنتاج تتم في واقع وقوف المرأة إلى جانب الرجل في عملية الإنتاج المادية والفكرية.. وإلا كيف يلتئم المجتمع بنصفيه على طريق الإنتاج والتنمية المستدامة.. إلا بتضافر الأفكار والعقول وصقل التجارب وتطويرها في عملية جدل الإنتاج عبر شغيلة قوىٰ العمل فكراً وجسداً من الرجال والنساء.. الأمر الذي أثار ضغينة وسخط الإسلام السياسي المتطرف الذي ترتجف فرائص أحقاده أمام فريضة الاختلاط بين الرجل والمرأة في الإنتاج والحياة بشكل عام.. وقد تصدىٰ الشيخ (البرَّاك) في فتواه بإباحة دم من يدعو إلى الاختلاط.

ويأتي تضافر الشجب والإدانة والتنديد بالاختلاط ضد (مُنتدىٰ خديجة بنت خويلد) في بيان موقع من 50 أستاذة جامعية من مختلف جامعات المملكة العربية السعودية وتتقدم هذه الجامعات جامعة (أُم القُرىٰ) التي حصدت أكثر من 19 توقيعاً من أولئك المربيات والأكاديميات الجامعيات اللواتي يدرن أخطر أجهزة العلم والمعرفة ويكرسنها للعداء ضد المرأة في مشاركتها في التنمية الوطنية.. وهو ما يؤشر إلى واقع ثقافة تطرف «إرهابي» خطير يأخذ بزمام غسل العقول الجامعية ضد المرأة ويكرّس كراهيتها واضطهادها واستعباد

كرامتها وتعنيف حياتها في المجتمع.. وقد تعرّض منتدىٰ (خديجة) للكثير من الانتقادات والإدانات من علماء ودعاة وكان على رأسهم (الشيخ عبد اللّه المطلق) عضو هيئة كبار العلماء الذي قال: «الموضوع الذي حدث في جدة والذي تحدث عنه هؤلاء في شؤون المرأة هم ـ حقيقة ـ لا يمثلون المرأة السعودية فهي بمعزل عن هذه الافتراءات التي يأتي إليها هؤلاء ويدعون فيها إلى الاختلاط وينشرون الاختلاط الممنوع بأنه التلاحم الجسدي هذه كلها أشياء المرأة السعودية والشعب السعودي لا يرضىٰ بأن يُمثِّله هؤلاء».

وتأخذ الصورة وضوحها بالدور التخريبي والظلامي الذي يلعبه الإسلام السياسي المتطرف في الوقوف ضد أي بادرة تنويرية تأخذ بالمجتمع إلى طريق التنمية الوطنية في الحرية والديمقراطية وإشراك المرأة في الاختلاط بالرجل في العملية المستدامة للتنمية الوطنية.. ولا يمكن ترك الحبل على الغارب لفلول الإسلام السياسي الذين يشنون حملاتهم الملغومة بالظلام والتخلُّف والتطرُّف ضد نشاط الإصلاح وثقافة الاختلاط والتغيير والتنوير الذي يتولىٰ دفة سفينتها خادم الحرمين الشريفين الملك عبد اللّه بن عبد العزيز وفي مبادرته التاريخية الرائدة في تشييد أول جامعة تنويرية مختلطة في عهده الميمون!!

ويأتي السؤال ملتبساً وملحاً (؟!) أليس هذا التوجه الظلامي الجامعي ضد الاختلاط من مربيات وأكاديميات سعوديات محجبات ومنقبات له أبعاد مخاطر ثقافة ظلاميّة وإرهابية متطرفة في استدامة جهادية الإرهاب والتطرُّف من خلال رائدات مناهجنا التعليمية والتربوية ومنطلقاتهن الأيديولوجية المعادية للمرأة؟!

* * *

إنه مؤشر رجعي خطير لأي دولة تتخذ قراراً تعسفياً بإلقاء القبض على كتاب ومنعه من التداول.. فليس هناك سبب على الإطلاق لإلقاء القبض على كتاب مهما كانت الأسباب ومنعه من التداول.. الكتب تشكِّل أفكاراً حرّة مشاعة للتداول والتبادل في المعرفة والنقد واقتحام المجهول من أجل اكتشاف الحقيقة!!

إن من يتعقّب كتاباً فإنه يتعقب حرية فكر وحق المعرفة لدى الإنسان.. ويدفع المجتمع إلى عتم الجهل والظلام.. إن مؤشر التقدم لأي مجتمع: احترام عقل الإنسان.. وإطلاق أجنحة الكتب تحلق في سماء الوطن تنشر الحب والمعرفة والحرية والسلم بين الناس!!

وعندما يُصبح الكتاب مُذلاً مُهاناً مُعتدىٰ على كرامته.. فإن الإنسان في هذا الوطن لا يمكن أن يكون إلا مُذلاً مهاناً مُعتدىٰ على كرامته الإنسانية!!

أذهب إلى بيروت.. ألج مكتباتها أسأل عن كتاب... يأتيني الجواب أن هذا الكتاب ممنوع.. ولكنه لم يكن

ممنوعاً منذ فترة.. يقول خالد صاحب مكتبة (المعرّي) وهو يتأفف حزناً ولكنه منع حديثاً! أصمت... ويصمت... أتأمله ويتأملني.. ولا نقول شيئاً.. ونكاد ننفجر صمتاً ونحن نردد: اللعنة.. اللعنة حتى الكتاب يُخفي وجهه خجلاً بين الكتب على رفوف المكتبة.. لم تكن مكتبة (المعري) حزينة كما عرفتها.. فقد كانت تبتسم مرحّبة.. بعقول كتب مستنيرة!! حزن المكتبة من حزن الكتاب.. وحزن مكتبة (المعري) من حزن شارع الحمرا المجلبب بالحجاب والنقاب وسواد الظلام.. حتى الابتسامة اختفت من على رفوف المكتبات في شارع الحمرا.. وكانت المطابع ودور النشر في لبنان رئة ثقافة ومتنفس حرية عقل وكتاب.. أما اليوم فالمكتبات ودور النشر والتوزيع في لبنان تضرب أخماساً في أسداس وتحسب ألف حساب وحساب للظلام القادم الذي يحاول مستميتاً نشر أجنحته السوداء في ربوع لبنان المعرفة والإشعاع والعقل والكتاب!!

لقد أصبح فقه الإرهاب والظلام القاعدة المعتمة في مجتمعاتنا العربية التي تتمدد عليها حسبة الإسلام السياسي في اغتيال الكتب في دور النشر ومن على رفوف المكتبات.. إن ما عرف في السنوات الأخيرة في حياتنا السياسية والثقافية بالإسلام السياسي.. أصبح هاجس ظلام واضطهاد وقمع

للروح التنويرية التي يحملها كتاب.. وتراهم يتنادون حسبة فضيلة إسلامية زائفة على أعتاب معارض الكُتب في الدول العربية وإقامة محاكم تفتيش للكتاب!!

وعلى أعتاب افتتاح معرض الكويت الدولي الخامس والثلاثين الذي تنطلق دورته في الفترة من 13 حتى 23 أكتوبر.. تتكالب قوى ظلام الإسلام السياسي السلفي والإخواني والخميني في تحالف ظلامي ضد الكتاب والعمل على دفع كتب الحداثة والتنوير خارج المعرض مما أثار سخطاً عارماً في الأوساط الثقافية المستنيرة.. واعتبر رئيس اتحاد الكُتّاب العرب سلماوي قرار المنع الكويتي جريمة ثقافية ينبغي أن نتخذ تجاهها موقفاً موحّداً حتى لا تتكرر.. معرباً عن قلقه إزاء الكتاب العربي قائلاً: «إن الأزمة تتخطى حدود النشر إلى حدود الانتماء العربي نفسه والفكر القومي فنحن لا يعنينا أن يكون المنع لاتجاه فكري أو ديني للكتاب أو الكاتب بل ما يعنينا هو المنع في حد ذاته». وقال الروائي إبراهيم عبد المجيد: «لم أكن أود أن أتحدث في هذا الموضوع لأنه لن يضرني ككاتب مصري فأنا مهمتي الكتابة فقط.. أما أن أجد المنع يطال 35 كاتباً وكتاباً آخرين من عدة دول فهو أمر غير مبرر وأرى الموضوع ينبع من سياسة كويتية جديدة في ظل تيار سلفي ينمو يوماً بعد يوم». ووصف الأديب خيري شلبي القرار (بأنه عمل متخلّف لأن مصادرة

الكتب أصبحت أمراً لا جدوىٰ منه فالكتاب يصعب حجبه عن القارئ بأي حال من الأحوال فإذا لم يجده في معرض فسيجده في آخر»، وأكد أن الأمر محزن لدولة الكويت فقد دأبت مجموعة من السلفيين المتشدقين بالإسلام على تشويه التجربة الثقافية والديمقراطية للكويت خلال 30 عاماً مضت امتازت بنشاط ونهضة ثقافية ملحوظة اكتسبت خلالها احترام المثقفين العرب لإصدارها هذا الكم من السلاسل الثقافية ومجلة (العربي) المتميزة.. واستطرد الشلبي قائلاً: «لقد أصبح السلفيون يقبضون على عقل الكويت فتارة يمنعون نصر حامد أبو زيد رحمه اللّه من دخول الكويت أو يصادرون الكتب بلا مبرر».

إن ظاهرة الحراك السياسي الإسلامي الظلامي والرجعي.. ظاهرة حراك تسود العالم العربي برمته وليس الكويت وحدها.. وإن قوى ظلامية لا تألو جهداً في التوسع للانقضاض على مظاهر الحداثة هنا وهناك!!

إن جهداً وتضامناً وتوحداً من الجميع يقضي عملاً فعلياً من أجل فكّ أسر الكتب التنويرية والديمقراطية والليبرالية والعلمانية من قبضة إرهاب الإسلام السياسي!!

* * *

أقول لأحد المسؤولين الثقافيين عندنا:

قد ترى لغة جديدة وطرحاً فكرياً «غريباً» وقد تستثير ملاحظاتك: لا تخضع للاستثارة.. وأطفئها بالتأمل.. وقد تراني منصفاً... فقد كان نقدي للطرفين دون الانحياز لطرف.. إلا طرف الثقافة المستنيرة.. وقد نقترب من ذات الرداء الأبيض (...) ونثريها ثقافة واعدة... وقد يكون ذلك مدار نقاش واعد رصين في تجاذب الآراء والأفكار.. وقد يشكل ذلك عملاً ثقافياً نقدياً لاحقاً في إثراء الساحة الثقافية وإنعاش النقد فيها... أثقلتُ عليك بكلمة (قد) و(قد) و(قد) ولكن تأملها فستجدها تضج بالأمل... والأمل ثقافة!!

قرأته مرّة واحدة (...) هل يستدعي قراءته مرة ثانية؟! كان ملحقاً ثقافياً من ملاحق صحفنا المحلية.. الذي أراد البعض (...) أن أدلي بدلوي ثقافياً حوله!!

لعلنا ندرك أن على الجبهة الثقافية عندما تدور رحىٰ الصراعات الفكرية.. فإن مرجعية المقتضيات الأخلاقية

الثقافية عليها أن تنزع إلى إدارة ظهرها شيئاً للسياسة واستفتاء ملكة الإبداع في المنتج الثقافي الإنساني!!

وقد يأتي السؤال متخشباً بليداً فجاً... وهل يمكن فصل الثقافي عن السياسي؟! دون الإدراك بأن المثقف في نسبيّة رؤيته الثقافية الإبداعية.. وإذا فقد هذه النسبية تماثل للمطلق... وفقد إنسانيته الثقافية أي فقد ثقافته ولم يستحق أن يُدرج في شرف لائحة الثقافة!!

فالثقافة حركة إبداع ترتقي ضمن مسلمات الحياة في الطبيعة والفكر والمجتمع.. وهي تستجلي بملكة العقل والإبداع والخيال حركة الطبيعة والفكر والمجتمع وتعيد صياغة إنتاجها فكراً ومادة إنسانيين مبتهجين صعوداً حتى الشمس!!

وتتجلىٰ سلطة الثقافة في سلطان الإبداع الذي لا سلطان عليه في تضاريس نوافل الماورائية!!

على المثقف أن يدرك خصوصية الثقافة الموشّجة بسلطان الإبداع المُطلق في نسبيته.. والمثقف الذي لا يستوعب ذلك قد يُسيء إلى نفسه وإلى الثقافة!!

وعندما تصبح الثقافة تصيّداً وبرامج أحابيل وأكاذيب وافتراء.. وهي ـ قد تجدها ـ كذلك في العوالم المترديّة بالفقر والجهل والمرض التي تتصدع الثقافة فيها بالغرور والعنجهية والتعالي على الآخر. والمثقف الذي يجد شيئاً

من ذلك عالقاً به عليه أن ينزعه ويلتحق بركب المثقفين النابض بشرف التواضع.. الثقافة تواضع والتواضع حقيقة.. وعندما تتجلىٰ الثقافة بملكة التواضع تقترب من اكتشاف الحقيقة.. ولا يمكن اكتشاف حقيقة المثقف إلا بالاقتراب منه وتحريك حقيقته الثقافية باستدلال عفو تواضع عرفان تثاقف الإنسان بأخيه الإنسان!!

وإذا كان رضاء الناس غاية لا تُدرك فإن رضاء المثقفين ـ على وجه الخصوص ـ غايات كثيرة لا تُدرك!!

ولم تلتئم يوماً على امتداد التاريخ فئة المثقفين بل كان الخلاف والتصدع والتذبذب يتنافر تشرذُماً من طبقة إلى طبقة أخرى!!

إنها حالة تُلاصق طبيعتهم وتجدد خلافاتهم الفكرية والثقافية.. فكيف يمكن إدراك رضاء مثقف... تحذلقت نرجسيّة شياطين أهوائه؟! المثقف تركيبة تفاصيل نفسية ونرجسيّة معقدة.. وتفاصيله هذه بالضبط مأوى للشياطين الزرق!!

إن خواطر المثقف تُجسد ذاتيّة تُشعِّب النرجسيّة لديه.. إلا ما استثنته الطبيعة في هذا الخصوص.. وإذا تعفّنت الثقافة بنرجسية فساد الذات فاقرأ عليها السلام!!

وكان على الجبهة الثقافية الخليجية لغط القِيل والقال وكثرة السؤال وإضاعة المال.. واحسب أن ما زاد الطين بلة

هو «غلغصة» السياسة في الثقافة أو حشو الثقافة بالسياسة حشواً ميكانيكياً وهو ما أفسد النظرة الموضوعية الثقافية النقدية بشكل عام!!

وكانت النظرة العدمية السياسية التي أفسدت النظرة العقلانية للثقافة هي الموقف الدوغماطيقي تجاه الدولة.. التي يرى بعض المثقفين أنها ثابتة لم تتغير.. وأنها لا تزال تدور كالسابق في قانون أمن الدولة البحراني سيئ الصيت.. «وأنها غير جادة في ذهابها إلى الديمقراطية» وهي نظرة ثقافية عدمية مترددة متشككة عاجزة أن تستوعب التحول الذي أحدثه مشروع الإصلاح.. وهي نظرة متأثرة بتأثيرات حزبية عدمية تعثرت في مسارات عبثيتها السياسية في المقاطعة وترويج نوافل الطائفية.. ولا يمكن أن يتسلح بوعي ثقافي جدلي واعد والأخذ بدفة حراك الإبداع الثقافي من لا يفرق بين دولة ما قبل مشروع الإصلاح ودولة ما بعد مشروع الإصلاح.. أو من لم يفرِّق بين ثقافة ما قبل مشروع الإصلاح وثقافة ما بعد مشروع الإصلاح إلّا من كان واهماً لا يزال يلامس برعاف أنفه ثقافة قمع واستبداد قانون أمن الدولة!! وهو ما تخندق فيه ثلة من المثقفين (...).

هل يمكن للعبودية أن تحنّ إلى عبوديتها؟! هل الوعي الباطني الثقافي المندثر يمكن أن يحرك الوعي الثقافي في صنميّة الدولة ورموزها ويثير ضراوة الخوف لدى بعض

المثقفين.. وإلا لماذا هذه العدمية تجاه الدولة ورموزها والحياة تأخذ تجددها وتبدلها وتعددها وتنوعها في الميثاق ومشروع الإصلاح؟!

الدولة إطار شامل للجميع والثقافة فضاء واسع متنوع متعددة للأفراد والفئات والطبقات وجميع شرائح المجتمع.. ولا أدري لماذا يتم إقحام ماضي الثقافة في حاضرها فغث ماضيها ولىٰ مع قانون أمن الدولة.. وسمين حاضرها ترانا نعيشه ونحاول تطويره وتحريره من رواسب ثقافة قانون أمن الدولة.. إلا أن هناك من يذكر في ورقة رؤاه الثقافية يتفيهق أحدهم قائلاً: «ونحن نعلم هنا أن التاريخ ليس ببعيد عن الدور الرقابي واعتقالات المبدعين ومنع العروض المسرحية ومصادرة حرية التعبير التي كانت الدولة تمارسها بشكل علني».

وكأنه يريد أن يثبت أن لا شيء تغيّر فالدولة كما كانت عليه لم تتغير.. مردفاً:

«من الواضح أن إرث الشأن الثقافي الحالي ما زال مرتبطاً بالمرحلة السياسية السابقة ويسير ضمن النسق نفسه الذي كان وما زال يسعىٰ إلى تهميش المثقف والمؤسسة الثقافية رغم نشوء مؤسسات جديدة في جسد المجتمع المدني وتفريغ السجون والعمل الدستوري الديمقراطي فإننا ما زلنا نرى وبكثير من التشاؤم أن إشكاليات الراهن الثقافي هي نفسها ما قبل مرحلة الإصلاح».

وهل يعقل ثقافياً في نشوء مؤسسات جديدة ومجتمع مدني وسجون تصفق أبوابها ونشاط دستوري وديمقراطي وأحزاب ونقابات وجمعيات سياسية وحريات عامة وحقوق إنسان وحقوق المرأة.. والثقافة ثابتة لا تتحرك كما كانت عليه في قانون أمن الدولة.. فهل يمكن أن يأخذ بذلك أحد (...)؟! من واقع أنه لا يمكن أن يتجسد هذا التحول النوعي في المجتمع في سكون ثقافي.. أليس في ذلك شيء من التحامل على الثقافة والمصيبة أنها تأتي من جهات ثقافية.. عندما يتوغل سوس البغضاء والكراهية والحسد والتشاحن الثقافي والطائفي بين المثقفين.. فإن الختل الثقافي يأخذ شأواً جاهلياً انتقامياً تبريرياً لا يهدأ.. وكأن التجني أصبح هاجساً ثقافياً مستساغاً في تمزيق الجسم الثقافي البحراني.. وإلا ألم يكن انتشال منازل الثقافة منزلاً منزلاً ونفض رتابة وتآكل واقعها المتدثر بصمت النسيان (...) ما يُشكل فيضاً ثقافياً في إحياء أرض الثقافة..

إن الجمالية الثقافية التي تألقت بمنازل الثقافة وإحياء ذاكرتها في ذاكرة الإنسانية البحرانية ذاكرةُ أنشطة تنويرية ليس في إعادة الحياة الثقافية إلى منازل روّادها وأئمة أنشطتها الإبداعية والفكرية الذين رحلوا إلى منازل الآخرة فحسب.. وإنما تحريك الدعوات لخيرة مثقفي الكلمة الحرة والجملة التنويرية الواعدة مثل تركي الحمد وجلال العظم ومحمد

أركون وغيرهم.. وغيرهم من العشرات الذين قدموا إلى البحرين في حميمية رعاية وزيرة الثقافة البحرانية الشيخة مي الخليفة التي جسّدت ضمير رعايتها في نشاط لا يهدأ.. ولم يكن ربيع الثقافة الذي تنابض شعراً ونغماً ولحناً وأداءً باهراً في جمالية إيماءة الجسد والشعر والموسيقى لمرسيل خليفة وقاسم حداد.. إلا صميم برهانية إبداعية ثقافية بحرانية تأصلت إنسانيتها التنويرية ضد غاشية الإرهاب التكفيرية التي كشرت عن أنيابها الصفراء ونفثت زفير أحقادها وكراهيتها ضد نورانية هذا النشاط الثقافي الذي عانق جلل إرادة الشيخة مي الخليفة الواعدة!!

أليس من الذميمة الثقافية القول: «إن الراهن الثقافي هو نفسه ما قبل مرحلة الإصلاح».

إن امتداد وتنوع وتعدد هذه الأعمال الثقافية المدهشة التي تتفتح زنابقها في ضمير الإنسانية التقدمية الثقافية ليس على الصعيد البحراني فحسب وإنما على صعيد العالم..

صحيح أن هناك لا تزال هنات وونات تعتور الوضع الثقافي.. إلا أنه لا يمكن سحب ذلك على منجز الأعمال الثقافية التي تستجلي عن حق وجه البحرين الإنساني ورميها بالحجارة!!

ولا يمكن أن يخدم الثقافة التخندق الثقافي البليد من بعض المثقفين والمتثاقفين في لغط الثقافة وتعثرها.. ولا

يمكن أن يرتقي إلى حقيقة ثقافية واعدة من فقد عقلانيته وموضوعيته وفق حسابات ذاتية ونرجسية ثقافية ذات أبعاد سياسية حزبيّة ضيقة.. ولا يمكن أن يحمل شرف ثقافيته... المثقف الذي ينأى بموقفه الثقافي ويركن إلى قذفها بالحجارة من بعيد: إنه مثقف عدمي لا يرتقي إلى مثقف غرامشي العضوي.

والثقافة يمكن تغييرها من الداخل في الالتصاق بها ومحاورتها بروح العقلانية لا بروح الشللية والنرجسية الحمقاء.. أو قذفها بالحجارة من على سطوح الشللية الثقافية..

والذي يخاف الثقافة هو الذي يبتعد عنها ويقذفها بحجارة النقد والهمس من بعيد!!

ومن كان منكم بلا خطيئة ثقافية فليرمها بالحجارة.. مع المعذرة من سيدنا المسيح!!

وكان (...) يقول إنها متسلطة... وكنت أسأل متسلطة أم حازمة؟!

وكان يقول متردداً: هاه.. هاه.. ما الفرق بين التسلط والحزم.. وكنت أقول له ابحث عن الفرق بعناية في اللغة وقد تجد ضالتك الثقافية..

والواقع إذا كان هناك ـ وهناك حتماً ـ من يتسلط في مصادرة أفكار الآخرين الثقافية ويلقي بها في سلة

المهملات.. فإنه يُسيئ إلى الثقافة ويحول دون استدامة تطورها وتجددها وتنوعها..

وفي الواقع من المفيد تسليط الأضواء على إشكالية النشاط الثقافي المؤسساتي الخاص بالأفراد وكذلك النشاط الثقافي المؤسساتي الحكومي ومحاذير إدارتها في سياق مصلحة متداخلة النشاط والتنمية.. وإن وجهات النظر بين المثقفين إذا توافرت النيات الحسنة والصدقية الثقافية فيما بينهم فإنه من الثقافة أن يحتدم أدب الحوار في النقد ونقد النقد للوصول إلى ما ينفع الثقافة.. وأما الزّبد الثقافي فيذهب جفاء.. وما ينفع الناس فيمكث في الأرض..

* * *

أن ترتدي كفن المغامرة الصحفية.. وتذهب إلى موقع أحداث الإرهاب التي تتفجر في الوطن... بأبشع صورها وأحط جرائمها.. وتقف على حقيقة فضائح الزمرة الإرهابية المتأسلمة المتأهلة التوحش في اقتراف أبشع الجرائم الإنسانية وأحطها بربرية وسفالة.. ضد الأطفال والنساء والشيوخ.. أمر يجذر المسؤولية الثقافية والشجاعة الصحافية!!

لقد اقتحمت الصحفية «أمل سرور» ـ مجلة نصف الدنيا ـ بقلب جسور وإرادة متوثبة ساحة الأحداث الإرهابية المتفجرة في الجزائر وأجرت مقابلات حيّة مع ضحايا الإرهاب. «تقول الطفلة (راضية) عمرها عشر سنوات: «اقتحم الإرهابيون بيتنا.. كتفوا والدتي وذبحوا والدي أمام أعيننا.. وقام آخرون وذبحوا أخي وأختي بالسكين من رقبتها.. وفجأة رأيت أمي عارية تماماً واثنين من الإرهابيين يعبثان في كل جزء من جسمها وبعد أن انتهيا ذبحاها ومثّلا بجثّتها بالسكين وفصلا رأسها عن جسدها».

إن المجازر الوحشية التي ترتكب في الجزائر تجاوزت تفسيرات ردّة فعل الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية

المأزومة في الجزائر.. وتحولت إلى تفسيرات تستهدف تشويه الثقافة العربية وإظهار المسلمين كالوحوش الإرهابية الكاسرة المجرّدة من القِيم الإنسانية!!

وتأتي الاتهامات جليّة لتدلل على هذه الأعمال الإجرامية التي ترتكب تحت مظلّة حركات إرهابية ترتدي مسوح التدين والأصولية وتستهدف تطبيق الشريعة الإسلامية. لاسيما وأن زعماء وقادة ومؤدلجي هذه الحركات الإرهابية المتأسلمة ينفثون سموم فتاويهم الإرهابية وهم قابعون في عواصم غربية.

تقول الدكتورة ليلى عسلاولي وزيرة الشباب والمرأة الشجاعة التي لم تلن لها قناة في مناهضة الإرهاب في قلب الجزائر بعد أن اغتال الإرهابيون زوجها طبيب الأسنان الدكتور فوزي عسلاوي بعد أن سألتها الصحفية «أمل سرور» بأن الكثيرين غادروا الجزائر خوفاً على حياتهم.. لماذا لا تغادرين وأنت مهددة بالاغتيال في كل لحظة؟!

«كل واحد له ظروفه.. وأنا لا ألوم أحداً أنا لم أفكِّر قط في أن أترك بلدي خصوصاً بعد اغتيال زوجي.. لأنني ببساطة لا أملك وطناً آخر.. وطني في دمي.. وإذا لم أدافع عنه فعن أي شيء أدافع؟!».

وعندما فتحت الحكومة الجزائرية الحوار مع عباس مدني قدمت استقالتها من وزارة الثقافة احتجاجاً على حوار يتم مع القتلة والإرهابيين حسب تعبيرها!!

وفي الثامن من مارس يوم المرأة العالمي قادت تظاهرة نسائية ضد الإرهاب وقد هتفت المتظاهرات منددات بالإرهاب والإرهابيين وقدّمن وردة حمراء لكل شرطي صادفهن في التظاهرة رمزاً لأداء الواجب في إطار مسؤولية مناهضة الإرهاب!!

لتتمجد الثقافة الجزائرية في نضالها ضد الإرهاب ممثلة في الدكتورة ليلى عسلاوي التي شكلت جمعية لمساندة أسر ضحايا الإرهاب في الجزائر.. وقد شهرت قلمها بلا هوادة في وجه الإرهاب.. وأدانت الأعمال الإجرامية التي يقترفها الإرهابيون وقد أحلوا دمها ودعوا إلى تصفيتها كما قتلوا زوجها.. إلا أنها لم تتراجع وكيف تتراجع وهي تعيش نبض الثقافة الحرة في دم زوجها.. وفي نبض دم وطنها المسفوح بجرائم الإرهاب المتأسلم في القُرى والمدن الجزائرية!!

وعندما أمسكوا بأحد قتلة زوجها وقابلته وهي تتفجر غضباً ونقمة.. ولما رأته تافهاً وغبياً أهوج.. برد دمها وتملكتها رعشة مرارة نفذت في سائر مناسم جلد جسدها.. وكان سؤالها:

[1] ـ لماذا قتلتوه؟

ـ طاغوت وقضى أمره.

---

(1) بعض المعلومات أخذت من مقال الكاتب والمفكر المصري د. رفعت السعيد.

ـ وهل تعرف أنه كان رايح يصلّي العصر عندما قتلتوه.
ـ قالوا كده.
ـ وهل تطلب السماح؟
ـ على أيش أطلب السماح كان طاغوت وانتهى.
ـ هل وعدوك بشيء لكي تقتله؟
ـ وعدوني وخلاص، أنا عندي مهمة قمت بها، هم قالوا طاغوت وأقتله]].

لقد أصبح الإرهاب ظاهرة «عربية» بمعنى أن مظهره يتمثل في كثير من الدول العربية تقريباً.. وتختلف نسب نشاط حركاته من بلد عربي إلى بلد عربي آخر.. إلا أن مخاطر أبعاده تأخذ عمومية آثامه ومخازيه في حاضر ومستقبل ضمير أوطاننا العربية!!

وكما أن ثقافة الإرهاب العربية لا تتجزأ في أهدافها وفي مدلولها السياسي والفكري والمنهجي عربياً ودولياً فإنها تترافد مادياً ومعنوياً في مد جسورها وتأصيل قنواتها وتثبيت أقدامها ونشر سواعدها وأذرعها عربياً وعالمياً عبر معابر السرِّ والعلن والممكن والمستحيل!!

وقد أثبتت الحياة أن ميل ميكافيليّة ثقافة حركتها تتوشج بروابط عالمية مشبوهة...

ومن هذا المنطلق فإن ما يحدث في دولنا العربية وغيرها من الدول هو ما ينسحب على دور المثقف في مقاومة الإرهاب ونشر الثقافة التنويرية، فالإرهاب البشع الذي يتفجر

في الجزائر ويأخذ أشكاله الدموية المتوحشة يتفجر بهذا الشكل أو ذاك حاضراً ومستقبلاً في ضمير الإنسانية التقدمية برمتها!!

فالمثقف الذي يلزم الصمت تجاه حريق الإرهاب في الجزائر هو في واقعه شاء أم أبىٰ.. يلزم الصمت تجاه حريق الإرهاب القادم إلى عقر داره.. وإنه لمن الهبل بمكان أن يلزم المثقف الصمت تجاه الإرهاب بحجّة أن هذا الإرهاب موجّه ضد النظام السياسي الذي يتشكل موقفاً وأداءً وعاطفةً في معارضته(!!).

أن يكون المثقف معارضاً للنظام السياسي.. هذا لا يعني أن يلزم الصمت عن جرائم الإرهاب التي تتفجر في صميم الوطن. وضد النظام فأنت كمثقف مستهدف من الإرهاب اللهم إلا إذا انخرطت في صفوف الإرهابيين. وهنا تنتفي عنك صفة الثقافة!!

وهل يمكن أن تتسق الثقافة مع الأعمال الإرهابية المتوحشة والمجرّدة من الأخلاق الإنسانية التي ترتكب بحق الأطفال والأمهات والشيوخ على وجه الأرض!!

* * *

تعدد شرائع الألواح.. من تعدد عناصر الحياة وطبيعة متناقضاتها في التنوع.. فالتنوع يُجسد تعدد شرائع الألواح..

وكل رأس تاريخي يرىٰ أنه يجسد حقيقة التاريخ في شرائع ألواحه: هذه ألواحي خذها كما هي.. وإلا دعها وعليك اللعنة.

الألواح تتحلل كالمبادئ.. فالألواح في مبادئها.. فإذا تحللت المبادئ تحللت الألواح... أيمكن للألواح أن تصمد في وجه الزمن.. فالألواح ابنة لحظات أزمنتها.. يصرخ زارا.. نيتشه.. أو يصرخ نيتشه زارا: فأتأمل ذكر ألواحهما.. «إن أغلال المبادئ الأدبية ينتج عنها بالفعل تفكك الشخصية في الفرد وفي المجتمع فيسود الاضطراب كل شيء لذلك لا بدَّ من وجود غاية يتجه الاستقرار نحوها.. لا بدَّ من محبّة جديدة».

أي غاية يدفع بها نيتشه زارا «أغاية الدين أن تحفوا شواربكم» من يحفو شارب من؟! وكان لزارا شارب وكان لنيتشه شارب.. وكأن فكر نيتشه يحفو فكر زارا وكأن فكر زارا يحفو فكر نيتشه.. وكأن أغلال المبادئ الأدبية تلهث متهالكة دون الوصول إلى محبة جديدة... وكأنّهما يتنفسان حشرجتهما في مبادئهم الأدبية المختنقة في وهم ثقافةٍ لاهوتية لا قرار لماورائيتها...

ويصرخ زارا «لا بد لنا من الرضىٰ بالواقع» ألذّة في الرضىٰ بالواقع؟! أم اللذة في تغيير ألواح الواقع.. لا لذّة في السائد وإنما اللذة في المتغير: التغير في المتغير.. وتغير المتغير إلى تغير.. واقع استمرارية جدل التغيير في المتغير..

كل شيء متغيّر هل تذكرون «ديمقريط» الذي قال: لا يمكن الخوض في النهر ذاته مرتين لأن قانون جدل التغيُّر يحكم ذرات متغيّر مياه النهر.. حتى السمكة تتغير بيولوجياً وفيزيائياً وكيميائياً وميكانيكياً في متغير مياه النهر!! فكيف يمكن أن نأخذ بألواح زارا وألواح نيتشه الفلسفية في سكون سطور ألواحهما... إلا أن نيتشه يُبهجنا في زارا قائلاً: «حذار من الظفر على مسلك الفضيلة.. فعلى كل فرد أن يسير في طريقه وإن جنح عن طريق الآخرين دون أن يطمح إلى بلوغ الذرّوة وحده إذ على كل سائر أن يكون جسراً للمتقدمين وقدوة للمتأخرين».

ولا أجمل ولا ألذّ ولا أروع من أن تتجاسر البشرية ممتدة في عمقها الإنساني على وجه الأرض.. أن أكون جسراً لك.. وأن تكون جسراً لي في العبور عبر التاريخ وفي عمق التاريخ في البحث عن الظفر بالفضيلة في أن تحتملني وأن أحتملك لبلوغ ذروة الاحتمال في الحرية والعدل والمساواة..

قد يصبح الإنسان العادي السطحي مُحتملاً ولا بأس به إذا هو اتجه بإرادته إلى إعانة سواه والإشفاق عليه.. راضياً بالطاعة مبتعداً عن التهجم فاحذر أن تزرع اعتقاد مثل هذا الإنسان بأن هذه الصفات إنما هي الفضيلة بعينها.

الاحتمال سمة إنسانية وعي الإنسان في الإنسان.. فأي مُعلّم هذا... الذي لا يتجلىٰ بالظفر في احتمال تلاميذه.

الاحتمال لغة الوصول إلى الحقيقة.. أحتملك لأقترب منك وألج في ذاتك وأكتشف حقيقتك... إن لكل ظاهرة حقيقة وإن لكل حقيقة ظاهرة.. والاحتمال هو هذا الجهد الذي يُفسّر الحقيقة بالظاهرة والظاهرة بالحقيقة شيء من هذا تتسقطه ذاكرتي في ذاكرة زارا ونيتشه..

إن كل ظاهرة فلسفية تحمل ظاهرة مبهماتها الفلسفية في الصواب والخطأ ضمن سيرورة زمانها ومكانها..

لنتأمل نيتشه في زارا حين يقول: «إذا أمكن للإنسان أن يجعل للعمل قيمة.. فكيف يتسنىٰ للعمل أن يجعل الإنسان ذا قيمة» ولم يتهيأ لهما لا لنيتشه ولا لزارا الانعكاس الشرطي (لبافلوف).

وكل عمل له قيمة والقيمة استوت في العمل وليس هناك قيمة مكتسبة خارج دائرة العمل.. أكانت قيمة مادية أم قيمة معنويّة.. أقيمة العمل من قيمة الإنسان أم قيمة الإنسان من قيمة العمل.. من يُحدد من.. القيمة تحدد الإنسان أم الإنسان يحدد القيمة؟! ولا قيمة لعمل بدون إنسان ولا قيمة لإنسان بدون عمل.. إنه الخلق والتخلّق بين العمل والإنسان من واقع أن قيمة العمل من قيمة قوّة الإنسان وعمل الإنسان في قوّة عمله.. تُشرّع قيمة الإنسان في الحياة.. ولو هيئ لنيتشه أن يستمد شيئاً من كارل ماركس: بأن قوى الإنتاج في العمل هي التي تحقق إنسانية الإنسان وقيمته في المجتمع «كأثمن رأسمال في الوجود» لاستتب مهتماً باهتمامه...

بوصلة الأفكار تضطرب يوم أن يفقد الاحتمال احتمالها... وتصبح الحياة خواء احتمال.. وإذا كانت الحياة احتمالاً فالإنسان احتمال.. ويتجلىٰ الاحتمال في الثقافة التي تصبح بالاحتمال وتستوي في الاحتمال وتتجدد بالاحتمال... الثقافة احتمال صيرورة التاريخ تماماً كما أن التاريخ احتمال صيرورة الثقافة!!

الاحتمال سبب أم نتيجة؟! الاحتمال سبب ونتيجة.. أنيتشه كان احتمال زارا.. أم زارا كان احتمال نيتشه؟!

وكنت وأنا بين دفتي كتاب نيتشه (هكذا تكلّم زارادشت) تداخلت عليّ الاحتمالات الذهنية حتى فقدت احتمال ذهنيتي.. وأنا في شتات ذهنية هذا وشتات ذهنية ذاك...

«كلما أوجدت إرادة تندفع إلى الآني وُجِدت حولها بيئتها.. ولزم أن تتوقع حدثاً عظيماً».

حدث البيئة.. أم بيئة الحدث؟! أسأل نفسي حتى فقدت احتمال بيئة الفرح في بيئة الاحتمال.. وكان نيتشه في قيمة تضاريس ابتهاجه وهو يطارد عند زارا بيئة الفرح في بيئة حدث الاحتمال!!

وتأخذني الدهشة في دهشة غريزة الحركة والعمل حتى أكاد أن أتماهىٰ دهشة في زارا ونيتشه معاً...

«إن ما فطرنا عليه هو أن نخلق كائناً يتفوّق علينا تلك هي غريزة الحركة والعمل.. وكما أن كل إرادة تستلزم

افتراض هدفٍ لها.. هكذا يدعو وجود الإنسان إلى افتراض كائن لم يوجد بعد وهو هدف حياة الإنسان نفسه».

أصحيح أن الحركة والعمل غريزة؟! أفي الغريزة وعي؟! أم في الوعي غريزة؟!

الحركة وعي العمل.. أم العمل وعي الحركة؟! أم الحركة والعمل وعي الغريزة؟! أبهذا نؤخذ إلى الفناء؟!

أبهذا يأكل بعضنا بعضاً في أن نخلق كائناً يتفوق علينا ويسحقنا في غريزة الحركة والعمل!!

الغريزة عدمية وعي الحركة وعدمية وعي العمل.. الغريزة خارجة عن وعي الإنسان الغريزة تتوحش وعي الإنسان وحركة الإنسان وعمل الإنسان.. وهي طي وعي الإنسان.. وأي حركة عمل هي هادفة واعية وهو ما يُميز الإنسان عن الحيوان.. وإن حركة العمل الواعية غير معنية بغريزة الحيوانات التي تحركها الغرائز.. وفي علم الاقتصاد الماركسي عندما يأخذ الرّبح شأو فائض فيض قيمته الرأسمالية في غرائزها الربحية تتآكل الحياة في ذاتها.. والأهداف ليست بغرائزها وإنما بعقلانية وعيها.. والحياة في إرادة وعيها وليست في إرادة غرائزها.. الغرائز تفترض وجوداً إنسانياً مُشوّهاً.. والعمل العقلاني الواعي وحده هو هدف حياة الإنسان نفسه!!

النيهيليّة (العدمية) ما يُشايع زارا في نيتشه.. ونيتشه في

زارا.. كأنهما خلقا من ثقافة العدم من أجل العدم... أليس الإنسان من التراب وإلى التراب.

وقد تنبعث جمالية زارا ونيتشه في صيرورة تناقض ما يجسدهما في عدمية الوعي.. ووعي العدمية.. وهي خاصيّة الأنبياء والشياطين على السواء.. وإذا كان في ما سبق شيء من خواص الشياطين.. فدعونا نقف على خواص الأنبياء لديهما:

«إن في الهدف مستقراً للحب وللاحترام وفيه ممكن للشوق ومنه تنبعث رؤى الكمال».

وبين الحب والكراهية والحياة والعدم عندهما عند زارا ونيتشه مسافة متقاربة تكاد أن تُماهيهما...

إن وعي «السوبرمانيّة» تعتل نيتشه وزارا.. وهي عين تسلّط الغرائز على الوعي.. وفي سيادة غريزة الفرد على وعي الجماعة.. وهو ينجلي في القوّة المذعورة.. فيما يبعثه زارا في نيتشه وما يبعثه نيتشه في زارا:

«إن ما أطالب به هو خلق أناس يعتلون فوق كل نوع إنساني.. وعلينا أن نُضحّي في هذا السبيل بأنفسنا وبأبناء جنسنا».

وكلما تمادى في نفح صدمات غرائزه الذاتية في عزلة تطبق على نفسه توجّد فيها مُنكفئاً على نفسه وفي نفسه مُستجلياً المبدئية الزارية: «إن خير الناس أقواهم جسماً وروحاً فيجب أن نستثمر منهم الآداب العليا: آداب المبدعين

إن زارادشت يريد استعادة خلق الإنسان على صورته ومثاله وإرادته هذه تنم عن إخلاصه» أفي الأنانية إخلاص أم في الإخلاص أنانية؟! إن في طغيان غرائز الوهم تصبح الألوهية الذاتيّة وهماً طاغياً يجسِّد إعادة استخلاق الخلق في خلق اللَّه في وضع يصبح فيه الخالق مخلوقاً والمخلوق خالقاً!!

وعندما أتأمل الانحطاط الذي يتوغل في ثقافتنا الأمنية في بلداننا العربية أحسب أنه اقتباس ما يتناوله نيتشه في زارا:

«اقتباس ما يمكن اقتباسه عن الأشرار وفتح مجال للنضال أمامهم إذ يجب استخدام المنحطين أيضاً». ويضيف «يجب أن يرسو حق العقاب على اتخاذ المجرمين أدوات للتجارب العلمية ـ ومنها التجارب لإيجاد طريقة جديدة للتغذية ـ وبذلك يُبرر استخدام الفرد لخير المجموع».

وكأنها دعوة مقتبسة طبق الأصل لما يحدث في السجون وفي أقبية التعذيب عندنا.. وفي الاتخاذ من مجرمي الإرهاب في سجن (غوانتنامو) أدوات للتجارب العلمية في علم التعذيب والتنكيل بالإنسان وانتهاك حرمة آدميته الإنسانية.

إن كل إنسان يحمل عاطفة فنان.. وهي أروع عاطفة في الإنسان.. وعلينا أن نعيشها ونعمقها فينا حتى تفيض نفوسنا عزف ميلوديا أمل الحياة.. فالحياة أول ما وجدت.. وجدت فكرة الموسيقى.. وكان فن الحياة في الموسيقى وفن الموسيقىٰ في الحياة... فالتموسق بالحياة وبحب الحياة

إيقاع موسيقى كورال الزمن في التاريخ وحدها الموسيقىٰ التي تزامن إيقاع الزمن في التاريخ.. والزمن يمضي.. ونحن نمضي في الزمن.. والموسيقىٰ لا تكف عزفاً إنسانياً في الزمن.. والزمن إذا خلا من الموسيقىٰ يفقد إيقاع زمنه من واقعٍ أن الموسيقىٰ إيقاع دهشة اللّٰه في الزمن..

وبعيداً.. بعيداً عن العدمية الأصولية التي تحاول قتلنا في قتل إيقاع الموسيقىٰ فينا.. في زمن حياتنا وتنفسنا حباً في بعضنا.. فالموسيقىٰ الطريق الأمثل إلى الحب وهي حب في حد ذاتها ومن يحتمل قتلها فإنه يحتمل قتل الحب فينا.. والحياة حب الموسيقىٰ.. والموسيقىٰ حب الحياة...

إن هذا المتجهم الرّث المتخشب الأعمىٰ الذي يفوح تفاهة وبلادة.. تراه يضع اللّٰه نداً للموسيقىٰ متجاهلاً أن التهدج بأسمائه الحُسنىٰ عين الموسيقىٰ.

وأحسب أن الموسيقى أجمل شرائع الألواح وأروعها على وجه الأرض.. إنها عين ألواح المحبة في عين ألواح الرُسل والأنبياء والصديقين المنثورة في الزمن وبين أكمام التاريخ...

أقال زارا شيئاً من هذا؟!

سألتُ نيتشه ولزم الصمت.. فهو في صمت زارا.. كما أن زارا في صمت نيتشه إنهما في صمت قبريهما.. إلا أن الكثير من صيغ أفكارهما أهجسها منثورة ثقافياً لدى هذا... ولدى ذاك... وفي ألواح هذا وألواح ذاك.. أيمكن للزمن

أن يترجّل شرائع ألواحنا... ما أكثر ما ترجّل الزمن شرائع الألواح!! نُريد للزمن العربي الثقافي أن يترجل ألواحه التي تهرّت في إيقاع الزّمن!!

* * *

أقال المعلم (زارا) للفيلسوف نيتشه شيئاً من هذا:

عندما تمتطي صهوة حصانك... وأنت في طريق مجهول عرّته سنابك الخيول وحفرته معارك الكر والفر في تضاريس الزمن.. تمسّك بوهن الرّسن جيداً وتقحم أيها الفارس الملثم... أغوار المسافات النازفة بالنار وأوجاع البشر...

وإذا فاجأتك النوائب.. تذكّر نوائب الآخرين فتخف أوجاع نوائبك.. وتتلوّح نفسك بربيع الحياة وورود الفرح..

حفر وصيته على قرن ثور بري وترجّل عن صهوة حصانه.. وخرّ إلى الأبد على الأرض... وقد توشجت وصيته تطواف أجيال بعد أجيال..

وأدوا الحياة... وهمّشوا الروح.. فكيف الخروج من الحياة إلى الحياة.. وامتطاء صهوة الأمل؟! من يتذكّر (فارس الأمل) في أميركا اللاتينية الذي رفع راية اليسار... وهوىٰ بلا أمل...

الحياة تَرقُبُ وتُحصي الأنفاس والسيوف تومض عطشاً

للدم... وفي تلافيف الأدمغة وتضاريس صحوة العقول...
تتنفس الأفكار حرّىٰ في سناء توهج التمرد المتصبب دماً من مآقي صخور الحياة...

وكان (زارا) يتكلم وكان نيتشه ينصت دهشة في دهشة (زارا) أهكذا تكلم زرادشت!!

الكلمة تحمل مخاض الفكرة... وفي طريقها تبحث في توحّش غابات من السيوف والرماح.. وكانت الحقيقة تتسلل على رؤوس أصابعها بين زحمة السيوف.. وحبرها يندلق تبراً مضيئاً من رأس ريشة قلم مثقل بوعي الحياة... لا أقسم بهذا القلم... أهكذا تكلم زرادشت كما يقول: نيتشه..

إن تكوّن هذا الامتداد السرمدي الذي يوشج الطبيعة والعقل والفكر والكلمة في حبر الحياة.. ما هي إلا تناسجات متجذِّرة متماسكة متلاصقة متلاحمة في صفات وصيغ صيرورتها منذ الأزل!!

إن تموّج الاختلال الوبائي... يداهم الواحد منا بعد الواحد من الكلمة إلى الفكرة ومن الفكرة إلى الكلمة... إذا أصاب الكلمة انتقل إلى الفكرة فتتلاهب الحياة في «كاتاكوريا» الروح من الجزء إلى الكل ومن الكل الجزء.. فالطبيعة بوّاحة المعاني وجميلة الروائع وطيّبة المباهج في مروج قوافيها ومفردات جبالها وامتداد سفوحها وخيال منابعها في تدفق شلالاتها، فيا لزرقة وعمق بحرها.. وومض نجومها

في خيال الحياة... وهي تضج بالتوهج في رأس قلم تبحث عن دفء الحبر في بياض الروح!!

إنكم أيها الأشقياء المنحدرون من سديم الماضي... بسيوف تقصف أنفاس الكلمات وتدلق هباء الحبر على الأرض وتقصف الحياة بالحياة لتأخذ التاريخ إلى الموت...

سملوا عينيه بلهيب من نار... فتحوا فمه ملؤوه بشوك العوسج كي يصمت لا يتكلم.. كي لا ينزف شعراً.. كي لا يهجو فقه أصوليتهم كي يتعتّم... ويتوب ويندم.. وفق إرادتهم...

أو لا يندم...

كي لا يقتحم المآتم... ويعري زيف عمائمهم ويعيد النطق إلى الأبكم... من يحمل ومض البرق.. ويشق سديم الليل الأبهم.. ويُهيّج قضية شعب يتوثب في ليل أسحم...

من يرفع أثقال صخور التاريخ عن القلب الذي يتألم..

من يُنطق فينا النصف الأبكم...

ويُزيح قناع الذل عن المبسم..

يا ناياً يتمزق شجواً في أنفاس متيم...

يا لحناً محزوناً يتلمّظ طعم العلقم.. يا فرشاة تنطق شعراً في يد فنان ملهم...

أتراه يناجي (زارا) ويفتش عن نار... تستجلي الرحمة في رحمة (زارا) وفي تصاميم الوهم لدى نيتشه يوم تكلم (زارا).

أكان (زارا) يعتمر العمامة... أكان نيتشه اعتمر عمامة (زارا) دون أن يدري أو لا يدري... حقاً: لا أدري!!

أتأمله... فأخطو به في نفسي... ويكاد يخطو بنفسه في نفسي.. أصرخ في نفسه متأملاً.. ويكاد يصرخ في نفسي متأملاً!!

أأنا مضيعة صراخ في بطن كتاب يغذُّ بي السير فكراً في صراخ فكره؟!

عندما يُصبح التأمل صراخاً... يفيض التأمل في الصراخ.. ويفقد التأمل إيقاعه... في إيقاع الصراخ...

لم أعهد إيقاعه إلا بطش صراخ.. أتمالأتني فلسفة ثقافة مناكفة حتى العظم لفلسفة ثقافته؟!

أدرك أنه يبسط ظله الفكري والفلسفي على تضاريس إيقاع عصره... وكان شأناً فكرياً وفلسفياً لا يشق له غبار.. إلا أن إيقاع عصره... ينازع إيقاع عصري... وإيقاع عصري.. ينازع إيقاع عصره.. هكذا الفلسفة تستوي وتتناضج في إيقاع فلسفةٍ تحت ظلّ الصراع الطبقي.. ولا وجود لفلسفة إلا في وجود نزاع فلسفتها في نفسها وخارج نفسها.. وكنت أستلُّ خيوطاً مضيئة من قلب إيقاع عتم خيوط فلسفته وأستوي خيطاً مضيئاً في نسيج الإنسانية التقدمية على وجه الأرض..

أسأل نفسي: أأحب.. أتناضج في تنور الحب... أآكل من خبز الحب...

لنستمع إليه متألقاً في حقيقة فردوس عدميّة خبز اللَّه في الحب المسجور بإيقاع قدسية صلاة آلهة الأديان في الزواج!!

مقرراً ببساطة فلسفية: [ليس النقص في الحب هو الذي يجعل زيجات اليوم تعيسة، وإنما هو النقص في الصداقة..].

وهو خيار بين الحب والصداقة والحب يتندّى صداقة.. أم الصداقة تتندىٰ حباً؟!

الحب يحدد الصداقة.. أم الصداقة تحدد الحب؟! من يحتضن من... الصداقة تحتضن الحب أم الحب يحتضن الصداقة؟!

الصداقة في شموليتها تحتضن الحب.. إنها في صدقية مبناها ومعناها.. الصدق يكتمن الصداقة ـ وليس الحب ـ ويتأسس في صيرورة مصداقيتها..

الحب يتشكل في فرمان عقد زواج آلهة الأديان.. خلاف الصداقة التي تتشكل على إيقاع صدقية الإنسان.. هكذا كان يتشكل (نيتشه) فكراً فلسفياً عميقاً خارج أفكار (زارا) مُحدداً ومُجدداً نقص الحب في نقص الصداقة... والصداقة تكتمل خارج الحب.. خلاف الحب الذي لا يكتمل خارج الصداقة.. من يفقد صداقته يفقد حبه.. ومن يفقد حبه لا يفقد صداقته.. الصداقة تطاول عُمر الحياة خلاف الحب الذي يلهث عُمراً في عمره...

أفي الحب عبودية... وفي الصداقة حرية... إننا مع الحرية.. وضد العبودية.. أهذا ما كان يهمس به نيتشه فينا أن نُدير بيننا كؤوس الحرية في الصداقة ونوارب أبوابنا ونوافذنا كؤوس العبودية في الحب؟!

هكذا كان فريدريك نيتشه يقوعد الحياة الزوجية على الصداقة..

وتأتي الحياة لتؤكد أن الحب عليه أن يتحول صداقة إذا أراد البقاء وطول العمر.. وهي أفكار تزامن حياتنا المعاصرة في المجتمعات المتحضرة مضامين فهمها للتاريخ ضمن مضامين إنسانية متألقة في فهم التاريخ.. فالغرام في الصداقة أكثر واقعية وشفافية إنسانية من الغرام في الحب والموهوم بمقاسات نصوص لاهوتية دور العبادة.. ويرى البعض أن الطريق الأعدل إلى تحرير المرأة هو دفعها في عمق الصداقة وتحريرها من عبودية الحب.. من واقع أن الصداقة حرية والحب عبودية..

وهو لا يشايع روعة إيقاع وعذوبة المرأة في الرجل أعني (نيتشه) وإنما ينهش إيقاع جماليتها بكراهية متوحشة.. حتى يوشك أن يفقد إيقاع توازنه كرهاً للمرأة!!

* * *

الحب دين.. أم الدين حب.. الحب يفسد الدين.. أم

الدين يفسد الحب... وإذا كان قرار الدين تناضجاً خارج التاريخ... وتشكلاً في الناس عبر التاريخ أفي الحب اللَّه... أم اللَّه في الحب... الحب يتشكّل في اللَّه.. أم اللَّه يتشكل في الحب.. أكان والدي الشيخ يعقوب بن يوسف بن إبراهيم الفارسي عندما يتشكل على سجادة صلاته في غُرّة الفجر مُتهدجاً منقطعاً في حب اللَّه وبحثاً عن الحب في ملكوت الحب في السماء وكان إيقاع اللَّه... اللَّه... يغيب إيقاعاً في إيقاع ترديده ويتقطع آهات عبادة حب آه.. آه.. فأصحو فجراً وأنا طفل على آهات تجلي إيقاع آهاته في البحث عن اللَّه... أين اللَّه.. أين اللَّه؟!

يالدين الحب عند (ابن عربي):

أدين بدين الحب أنىٰ توجهت
ركائبه فالحب ديني وإيماني

وإذا كان حب اللَّه في الحواس... فالحب ضمن الحواس...

أللحواس وجود خارج التاريخ؟! وتتشكل حيرة الحب بين الحب لدى ابن عربي.. والحب لدى نيتشه.. وكان ابن عربي يبحث عن الحب في الدين.. وكان نيتشه يبحث عن الحب في الصداقة.. ويتشكل نصر حامد أبو زيد حباً لا يُجارى تولهاً وتوجداً في حب ابن عربي قائلاً: «إن الأصل الذي تستند إليه كل الأديان والمعتقدات هو أصل العلاقة بين «الحق» الخالق و«الخلق» المخلوق وهي علاقة «الحب» في

البدء كان «الحب» هكذا يتصوّر ابن عربي «الحقيقة»: كان اللَّه ولا شيء معه كان كنزاً مخفياً فأحب أن يُعرف فخلق العالم ليعرفه هكذا تتحدد الحقيقة استناداً إلى التراث الإسلامي مشروحاً شرحاً عرفانياً.. يسمح لابن عربي أن يميّز فلسفياً بين مفهوم «الدين الإلهي» الواحد وبين «أديان المعتقدات» الكثيرة وذلك في كتابه «فصوص الحكم» حيث يخصصه للتوسع في عرض نظريته في «الكلمة».

الحب كلمة... والكلمة حب... وفي البدء كانت كلمة الحب.. وتشعب الكلام في الكلمة.. وتشعب مفهوم الحب في الكلمة..

لقد أضاع منطق الفلسفة الحب في اللَّه... كما أضاع اللَّه في الحب إلا أن من أضاع اللَّه عليه أن يبحث عنه في الحب.. ومن أضاع الحب عليه أن يبحث عنه في اللَّه..

أصحيح أن كل من تمنطق تزندق؟! الفلسفة حب البحث في اللَّه... ونبش الحقيقة في الحياة!! فأين الحقيقة في اللَّه أم في الحياة؟! ويأخذ السؤال سرمديته سلاماً حتى مطلع الفجر... فجر الحقيقة في الحياة!!

* * *

ختام

وبعد الثقافة واقع امتداد وتمدد تاريخي موضوعي وذاتي في الإنتاج المادي والفكري في الحياة...

إنها صيرورة علاقة تاريخية بين المادة والفكر.. بين المادة الثقافية والفكر الثقافي.. وفي التاريخ ماضياً وحاضراً ومستقبلاً.. يتجدد الجدل في تأويل بدء الصيرورة.. للفكر أم للمادة.. فكر الثقافة.. أم مادة الثقافة؟! ثقافة بلا مادة.. أم مادة بلا ثقافة؟!

لا ثقافة بلا مادة ولا فكر بلا ثقافة.. ويأخذ الجدل بشكل عام بين المادة والفكر.. كما هو بين مادة الثقافة وفكر الثقافة..

إن السؤال التاريخي ذاته في المسألة الفلسفية يمكن إدارته أولوية الخلق للمادة.. أم للفكر.. أولوية مادة الثقافة أم أولوية فكر الثقافة؟!

الفكر الثقافي يخلق المادة الثقافية.. أم المادة الثقافية تخلق الفكر الثقافي؟! المادة الثقافية تحدد الفكر الثقافي.. أم الفكر الثقافي يحدد المادة الثقافية؟!

مادية التراث الثقافي تحدد الأفكار الثقافية.. أم الأفكار الثقافية تحدد التراث الثقافي؟!

تُراثنا الثقافي المادي.. يحدد أفكارنا أم أفكارنا الثقافية تحدد تراثنا الثقافي المادي والفكري؟!

الجدل ركيزة استمرار تجدد ثقافة الحياة.. أم الحياة ركيزة استمرار تجدد ثقافة الجدل؟!

الحياة ركيزة استمرار تجديد ثقافة الجدل والعكس صحيح أيضاً..

وبالرغم من أن أولوية الصيرورة للمادة وليس للفكر.. وأن المادة أبدية الديمومة خلاف الفكر المستحدث من المادة.. فالأصل مادة ثقافية.. وليس فكراً ثقافياً إلا أن هذا الفكر الثقافي يتخلّق بطبيعة تخلّق المادة الثقافية في النقض والتناقض نقض ثقافة قديم الحياة بثقافة جديد الحياة في جدل المادية التاريخية الثقافية.. وجدل الفكر التاريخي الثقافي!!

الثقافة المادية تتجدد في الثقافة الفكرية.. والثقافة الفكرية تتجدد في الثقافة المادية في ثنائية الجدل بين المادة والفكر..

طابع المثقف نقدي.. وطابع الثقافة المادية والفكرية على السواء نقدي... والنقد بطبيعته التغييريّة يتأمل الثابت... متحفزاً إلى تحريكه وتغييره!!

إن الثقافة في نصوص حاضرها وماضيها ومستقبلها..
وجميعها خاضعة لتحريك وتغيير ثقافة الأفكار...

إن كل نص ثقافة... وإن كل ثقافة نص... والمثقف نص ثقافي ضمن جدل الثقافة المادية والفكرية!!

وقد تجد الثقافة في نصوص طغاتها ودجاليها «ومثقفيها» سأل معاوية الأحنف بن قيس عن الزمان.. فأجابه أنت الزمان.. فإن صلحت صلح.. وإن فسدت فسد..

وكان أكبر خلفاء بني أمية عبد الملك بن مروان يلوّح بسيفه قائلاً: من قال لي ـ بعد اليوم ـ اتق اللّه ضربت عنقه..

وكان هارون الرشيد يخاطب الغيمة في السماء... أمطري حيث شئت فخراجك سوف يأتيني ولو بعد حين!!

وكان جعفر المنصور يثاقف اللّه في خطبته بمكة:

«أيها الناس إنما أنا سلطان اللّه على أرضه أسوسكم بتوفيقه وتسديده وتأييده... وحارسه على ماله أعمل فيه بمشيئة إرادته وأعطيه بإذنه.. فقد جعلني اللّه عليه قفلاً.. إن شاء أن يفتحني فتحني لإعطائكم وتقسيم أرزاقكم وإن شاء أن يقفلني عليها أقفلني» إلى آخر الخطبة... راجع العقد الفريد..

وكان عمر بن عبد العزيز يستعرض وضع الخلافة الأموية في حاكمية شرور مستطيراتها في أيام الوليد بن عبد الملك:

إذ الحجاج في العراق.. والوليد في الشام.. وقره بمصر.. وعثمان بالمدينة.. وخالد بمكة قائلاً: اللَّهم قد امتلأت الدنيا جوراً وظلماً!!

وفي أيامنا يثير الإسلام السياسي في وجوهنا غبار ثقافة العودة إلى ثقافة الخلافة الإسلامية.. الذي قال عنها عمر بن عبد العزيز.. قد ملئت الدنيا جوراً وظلماً.. كأن أوضاعنا العربية ناقصة ظلماً وجوراً!!

أو ثقافة تعذيب المرأة وإذلال المرأة وامتهان المرأة.. في نصوص أمهات كتبنا الفقهية.. وعلى المذاهب الأربعة في كتاب النكاح والطلاق، الجزء الرابع، طبعة دار الحديث رقم الإيداع بدار الكتب 5073/ 1994، ينجلي سخف إذلال واضطهاد واستعباد النساء بيّناً شاهراً ظاهراً إذ تقول الحنفية بعدم مسؤولية الزوج عن مصروفات تزيين زوجته ولا ينفق عليها لتأكل الفاكهة أو لشرب الشاي أو تعالج عند المرض لأنها للمتعة فقط..

والحنابلة قالوا: إن الزوج ليس عليه تكفين زوجته عند موتها حتى لو كانت فقيرة..

والمالكية: كثرة أكل الزوجة سبب للطلاق وليس من حقها أن تبيع المنقولات الزوجية قبل 4 سنوات حتى لو هلكت ولا تستحق سوى الغطاء والفرش الذي تنام عليه..

والشافعية: رفعوا الحرج عن الزوج في توفير الماء

للزوجة في حالة الحيض والاحتلام أو دفع مصاريف العلاج أو أجر الطبيب وهو ما يوقفنا عليه المستشار أحمد عبده مُتسائلاً: أهذا هو إكرام المرأة في الإسلام الذي يريد أن يعود بنا إليه فقهاء الإسلام السياسي... وعلى هذه الصورة القاتمة والمعيبة التي تشرعها المذاهب الأربعة آنفة الذكر...

الثقافة رهن عصرها في حاضر تنويرها وضياء مستقبلها.. وهي بضرورة معاصرتها الحياتية تتجدد ثقافة معاصرة على أنقاض ماضوية تراثها الثقافي!!

والثقافة في محيط عالميتها الإنسانية الثقافية... وبطبيعتها النقدية تعيش اختراق جمود محليتها الثقافية إلى عالمية أمميتها الثقافية الإنسانية!!

كتب صدرت للمؤلف

1 ـ مطارحات فكرية ـ الجزء الأول، 1960.
2 ـ مطارحات فكرية ـ الجزء الثاني، دار قرطاس، الكويت، 2001.
3 ـ قضايا سعودية، 1960.
4 ـ بصمات وجدانية، دار قرطاس، الكويت، 2001.
5 ـ موج البحر، دار قرطاس، الكويت، 2001.
6 ـ في الثقافة والنقد، دار قرطاس، الكويت، 2001.
7 ـ وجوه في مصابيح الذاكرة ـ الجزء الأول، دار قرطاس، الكويت، 2001.
8 ـ العلمانية طريق التقدم، دار قرطاس، الكويت، 2004.
9 ـ عبدالعزيز المعمَّر.. ذاكرة الوطن، دار قرطاس، الكويت، 2005.
10 ـ وجوه في مصابيح الذاكرة ـ الجزء الثاني، دار قرطاس، الكويت، 2005.
11 ـ وجوه في مصابيح الذاكرة ـ الجزء الثالث، دار قرطاس، الكويت، 2007.
12 ـ ما هي الليبرالية، دار قرطاس، الكويت، 2007.

13 ـ الإرهاب في جزيرة العرب، دار الفارابي، 2008.

14 ـ إنـي أشـم رائـحـة مـريـم، الـجـزء الأول، ط1، دار قرطاس، الكويت، 2002، ط2، دار الفارابي، 2010.

15 ـ إنـي أشـم رائـحـة مـريـم، الـجـزء الـثـانـي، ط1، دار الفارابي، 2010.

16 ـ وجـوه فـي مـصـابـيـح الـذاكـرة ـ الـجـزء الـرابـع، دار الفارابي، 2011.

17 ـ المساءلة، دار الفاربي، 2011.

المحتويات